الدولة الحديثة

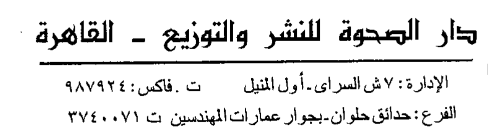
بين الحقيقة والتزييف

الدكتور عبد الحليم عويس

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م





دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

الإدارة : ٧ ش السراي - أول المنيل ت . فاكس : ٩٨٧٩٢٤

الفرع : حدائق حلوان - بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

مقدمة

لانستطيع أن نزعم أن هذه الرؤية التى نقدمها هى كلمة الفصل الخاتمة، ولاهى الحق المطلق...

وحسبنا أنها محاولة موضوعية مخلصة لعبور (أزمة الدولة) التى وجدت نفسها فينا، ووجدنا أنفسنا فيها فى هذا العصر الحديث!!

ومع أننا فيها، وهى - أيضاً - فينا، فإن هناك انفصالا كبيراً بيننا وبينها لدرجة أنها أصبحت مظلومة ظالمة، وأصبحنا نحن - كذلك - مظلومين ظالمين... فأحيانا يرفض الناس كل ما يصدر عن السلطة، حتى لو كان بعضه حقا. وهم يرتابون حتى فى علماء الدين الذين يتعاملون معها، حتى لو قالوا حقاً!!

- وأما السلطة، ففى أحيان كثيرة لا تأبه بنا، وهى تعرف أن وزيراً، أو عدداً من الوزراء مكروهون منا، يعملون ضد ثوابتنا، ويهدمون قلاعنا. ومع ذلك، فهى تبقيهم وتشجعهم على التطرف ضدنا... بل إنها لتضع فى قمة الأهرامات الثقافية والفكرية أعداء حقيقيين لعقيدة الأمة وشريعتها وحضارتها، ممن يعملون لصالح المشروع الثقافى الأمريكي الأوروبي.. غير مبالية بمشاعرنا ولا مصالحنا!!

- وهكذا وقع الانفصال النفسى بيننا وبينها، وأصبح الحب شذوذاً، والشك قاعدة..

وهذه الأوراق التى نقدمها محاولة للخروج من هذه الأزمة، بعد أن استفحل خطرها، وأصبحت السلطة تشبه جيش احتلال، وأصبح الشعب عدواً للسلطة إلا فى الحدود التى تقتضيها المصلحة الضرورية.

- فكيف وقع هذا الخلل الكبير فى المحيط الإسلامى؟

- إن المجتمعات الغربية قد مرت بهذه الأزمة حين كان للكنيسة صلة بالدولة تشبه صلة الروح بالجسد. وأرادت الكنيسة أن تقهر العلم والعقل والأدب والفن، وأن تجعل الناس يعيشون فى

الآخرة بينما تعيش هى فى الدنيا، فثار الناس وعزلوها عن الدنيا، وأصبحت الدولة هى المادة والعقل... ولا روح فيها، وليس لها فى الحياة أية غايات سامية، ولا صلة لمناهجها وتشريعاتها إلا بهذه الدنيا المحدودة حسبما يقتضيه العقل والمادة... فلو أوجب العقل استنزاف شعوب أو إباحة شذوذ أو محرمات أخرى، أو استعمال وسائل غير شريفة من أجل مصلحة الدولة العليا، فلا ضير فى ذلك. فلا أخلاق ولا ضمير ولا آخرة فى السياسة التى تحقق مصلحة الدولة.

أما فى العالم الإسلامى، فهناك تركيبة حضارية أخرى، حيث لم يكن هناك لاهوت، وحيث لم تنفصل الروح عن الجسد، وحيث يتشابك نسيج الحياة وتتكامل الطاقات. فالروح والجسد معا يقويان العقل، والوسيلة تنسجم مع الغاية، والحياة الدنيا المحدودة مرتبطة بالآخرة. فهى من غيرها جملة غير مفيدة!

وبإيجاز: إن "**الله**" موجود فى صياغتنا الحضارية للحياة... ولاتستطيع الدولة أن تهمل "**الله**" إلا إذا خانت حضارتنا كلها، وأصبحت تعبيراً عن حضارة أعدائنا.. هؤلاء الذين عزلوا وجود الله وهيمنته فى ركن خصصوه له مكاناً، وفى يوم حددوه له زماناً.. هؤلاء الذين فصلوا بين الروح والجسد والعقل وأعطوا مالله لله وما لقيصر لقيصر... وأذاقوا البشرية - باسم المصلحة والعقل- أبشع صنوف الاستعمار (الاستدمار) واخترعوا النظم الدولية غير العادلة، ونشروا الفوضى فى العالم، وأشعلوا الحروب العالمية (المصلحية)... ودمروا المعانى الإنسانية والأخلاقية فى الحياة..!!

* * *

انه من حقنا- بل من واجبنا- أن نطالب بألا نكون نسخة مكرورة من هؤلاء، وأن تبقى لنا منهجيتنا الربانية والإنسانية. وأن نعمل على أن تكون الدولة تعبيراً عن مشروعنا الحضارى، وأن تبقى جزءاً منا، لا أن تكون بيننا وليست منا، ومنتمية إلى

حضارتنا لكنها خاضعة لمشروعات وتخطيطات وتوجيهات تجرها إلى فلك الأعداء.

وليس من مصلحة الإنسانية أن يكون هناك مشروع واحد تخضع له، ولاسيما اذا كان هذا المشروع يعمل لحساب قومه فقط، وليست له رسالة إنسانية ولا أخلاقية، كما أن هذا المشروع يترجم عن تاريخ أبنائه وتجربتهم، والعقائد التى سيطرت عليهم، بل من مصلحة الإنسانية ومن مصلحتنا فى المحيطين العربى والإسلامى أن نتمسك بالتعددية الحضارية وبمشروعنا الإنسانى والأخلاقى والذى لانستطيع بدونه أن نكون أحراراً وسادة جديرين بالحياة!!

لقد تخلت تركيا -بدءاً من سقوط الخلافة واستيلاء مصطفى كمال- عن كل شىء... عن الدين، وعن اللغة التركية القديمة، وعن الطربوش... وعن علاقتها بالعالم الاسلامى. ومع ذلك مازال الغرب يرفضها بوضوح ويقول لها: إننا لن نقبلك إلا إذا تركت الإسلام كله، وفرقناك إرباً وأصبحت جزءا لايتجزأ من أوروبا... وأعلن (أوزال) رفضه لهذا الاستعباد وهذا المسخ بعد سبعين سنة من العلمانية واللادينية والفوضى والعذاب الشديد!!

* * *

فحتى لاتتكرر التجارب الفاشلة، وحتى لاتتفكك الدولة، وحتى لاتنقطع صلتها بالشعب، وحتى لاتستعر المعارك الداخلية، وحتى تستقيم الحال ونقلع من هذه الأزمة الخانقة- أقدم هذه الرؤية: رسالة حب للدولة وللشعب معا، وخطوطا عامة يصلح الالتقاء عليها ومناقشتها.. عسانا ننقذ الدولة وننقذ الأمة كلها، فلربما جاء يوم نعود فيه- بحق- خير أمة أخرجت للناس.

أ.د / عبد الحليم عويس

مقارنة بين الدولتين :
الحقيقية والمزيفة

تقوم (**مؤسسة الدولة**) فى مرحلة الاستقلال المزيف فى المحيطين العربى والإسلامى على نمطية قاتلة أحسنت العبقرية الاستعمارية صياغتها!!.

إنها نمطية تحمل فى أحشائها كل الأمراض الكفيلة بتدمير طاقة الأمة، فهى سواء كانت متحركة أوساكنة ٠٠ مستيقظة أونائمة ٠٠ منتبهة أوغافلة ٠٠ تحمل معها ما استقر فى أحشائها من أمراض وأوباء!!.

لقد كان التطور العقلى الأوربى قد بلغ مداه العميق من الفقهين السياسى والحضارى، وقد أصبحت لديه القدرة على أن يصنع القوالب الجاهزة التى تبدو جميلة المظهر متينة البناء طليقة الحركة ٠٠٠ لكنها فى الحقيقة معبأة بأنواع من الخلل وصور من التناقضات تجعلها تتقدم خطوة فتخسربها خطوتين، وتبنى طابقا لتهدم به طابقين، وتقيم أشكالا ذات مظاهر حضارية تنفق عليها المليارات، لكنها فى حقيقتها خالية من الفعالية الحضارية ٠

لنتذكر هنا مراكز البحوث فى المحيطين العربى والإسلامى، والإمكانات المتاحة لها، والنتائج التى تصل إليها ٠٠٠ ولنتذكر الفروق بين هذه المراكز الشكلية جداً وبين مراكز البحث فى الدول الأوربية وأمريكا واليابان مثلا ٠٠٠

ولنتذكر الجامعات والجامعيين، وكيف تحولت أوراق الشهادات وألقابها إلى غاية فى حد ذاتها، حتى الشهادات التى يحصل عليها أصحابها من الجامعات الأوربية والأمريكية تفرغ أيضا من مضمونها، فهى شهادة جميلة مطبوعة بالخط الجميل الذى كتبت به الشهادة التى حصل عليها الطالب الأوربى نفسه ٠٠ لكن

الجامعة الأوربية تدرك حدود العطاء الذى تقدمه للطالب العربى والمسلم، ثم هى ترسله بعد أن تمنحه ورقة الشهادة - مطمئنة - إلى مؤسسة الدولة التى ينتمى الطالب المسلم إليها، والتى تعرف الجامعة الأوربية -بيقين- أنها كفيلة بتحقيق التحنيط الكامل للطالب والإفراغ الكامل لأية بصمات حضارية إيجابية يكون الطالب قد حصل عليها متجاوزاً الحدود المرسومة له هناك، أو هنا ... وفعلا يثبت لدينا أن مؤسسة الدولة تحقق تماما الأهداف المرسومة لها، وتقضى على كل البواكير الإبداعية التى يمكن أن تكون قد ظهرت عن طريق الخطأ فى طالب الشهادة الأوربية.

أما الشهادات الجامعية داخل المحيط الإسلامى حيث لاتتوافر إمكانات البحث العلمى، وحيث يحشد الطلاب بالآلاف، وحيث يحارب كل نابغة، وكل حرالفكر، وحيث ينظر إلى الشخص من منظور الثقة والولاء وليس الكفاية والنبوغ، بل ينظرإليه أحيانا من منظور أصله القبائلى أو الوطنى الضيق أو المذهبى ... حيث تقوم كل هذه الأصفاد أو الأكبال، فإن احتمالات ظهور عبقرى تكاد تكون معدومة!!.

* * *

ولا نريد هنا أن نستطرد فى تقديم الصور الجميلة فى الظاهر، الفارغة - فى الحقيقة - من محتواها، فهى معروفة شائعة لكننا نريد أن نقف عند تحليل هذه الظاهرة فنتساءل:

- كيف نجحت العبقرية الاستعمارية فى تعطيل دولاب الحضارة للأمة العربية والإسلامية على هذا النحو؟

- إن الأمر بالتأكيد يحتاج إلى دراسة عميقة.. لكننا سنحاول أن نقدم بعض الومضات فلعل غيرنا يتقدم فيكون أقدر منا ليقدم المزيد حتى يعتدل الميزان فى أيدينا، ونعرف من أين يأتينا هذا الوهن الذى

نعيش فيه .

ولكى نعرف بعض الحق فى هذه القضية الخطيرة فإن الواجب يفرض علينا أن نعترف بأن العقلية الاستعمارية عقلية جماعية تفكر بمنهجية علمية قوية ، وتعتمد على فقه بالأنثروبولوجيا وعلم نفس الشعوب، وهى قادرة على استبطان التاريخ واستنطاقه حتى من خلال بحوثنا التى نكتبها نحن بطريقة جادة ، ولكنها جامدة ، وبعلمية قوية ، ولكنها ساكنة وغير ناطقة ، بينما يتفننون هم فى تجاوز الوقائع والسواكن إلى عالم الاستنطاق الفلسفى لتاريخنا!! .

ويجب أن نعترف أيضا بأننا على العكس من ذلك، وذلك هو السبب الرئيسي فى اختراق الاستعمار لنا ، فنحن الذين أعطينا الاستعمار الفرص الذهبية لتوجيه قطارنا الحضارى - بقيادة مؤسسة الدولة - إلى الطريق الذى يريدنا أن ننتهى إليه ، مبددين بهذا التوجيه فى كثير من الأحيان -جهود أجيال وطاقات أحقاب كثيرة من السنين!! .

إن بعض الزعماء يتحركون فى اتجاهات يظنون أنهم يحققون الخير فيها لأمتهم، وأنهم يمشون فى الطريق المعاكس لأهداف الاستعمار - بينما يكونون فى الحقيقة قد قدموا للاستعمار أفضل الخدمات التى لم يكن يحلم بها!! .

وأنا أدعو كل المخلصين ، وأناشدهم الله ، أن يتجردوا بموضوعية شديدة لتحليل تلك الفترة التى حكم فيها جمال عبد الناصر حتى انتهى إلى نكبة ١٩٦٧م!! .

وأنا لا أريد أن أدخل طرفا فى الألعاب البهلوانية السياسية التى تدفعنا إلى البعد عن الحوار الموضوعى ، فإنه تحت راية عملية (التصنيف) يتم رفض الرأى الآخر -ابتداء- ويوقف إعمال العقل ، ويحكم على القضية من خلال الأوهام المسبقة حول انتماءات من يطرحها للبحث!! .

إننى شخصيا أعلن أننى لم أصب من حكم عبد الناصر -ولا أحداً فى عائلتى أو قريتى- بأى أذى، بل إن بعض الفوائد قد أصابتنا كناس ينتمون إلى الطبقات الكادحة ... لكننى -مع ذلك أقول:

لو أن عبد الناصر كان ينتمى فعلا إلى الثوابت الحضارية العربية والإسلامية، وعلى أساس من هذه الثوابت وطموحات المستقبل تواضع وتفاعل مع الإنسان والعقل المصريين والعربيين، وأنشأ أجهزة حقيقية للشورى والرأى الآخر والبحث العلمى، وعكف على تقديم نموذج من بلده يصلح للبلدان العربية الأخرى، وسار فيما سارت فيه اليابان بصمت وبدون ضجيج بعد هزيمتها الرسمية وقبولها بالاستسلام فى ١٥/أغسطس ١٩٤٥.

وبدلا من أن ينشئ (**وزارة الهجرة**) ويفتح الأبواب لطرد الإنسان المصرى من بلده تحت ظروف القهر السياسى وأساليب التجسس والتعذيب التى أصبحت كالشبح الذى يشعر به كل الناس الذين تعيش بعض الثوابت فى أعماقهم، ويريدون أن يقدموا فهمهم لخدمة بلدهم...

بدلا من هذا يحنو على هذا الإنسان ويدربه على التعبير الموضوعى غير الانفعالى عن نفسه ويفتح له مجالات الإبداع، ويستقطب كل المصريين المهاجرين، ويرفض استيراد أفكار معلبة جاهزة لهم، كما يرفض أيضا استيراد وسائل متطورة لتعذيب هذا الإنسان المصرى -العاطفى بطبيعته.

لقد كان عبد الناصر **-لو فعل هذا-** سيخرج إنسانا آخر يصلح لمرحلة الاستقلال، قادراً على صناعة الحضارة، زارعاً، صانعاً، مبدعاً، منافساً للإنسان اليابانى الذى لم يكن أقل منه فى الاستعدادات والمواهب الشخصية... ولنتذكر هنا الإبداع المصرى مع وجود الاستعمار - فى مرحلة الثلاثينات والأربعينات، وهو إبداع ما زال هو الموجود فى حياتنا حتى اليوم!!.

لكن العبقرية الاستعمارية التى تعرف شروط التطور ما كان ممكنا لها أن تترك مصر لتمضى فى الطريق الصحيح بعد أن فرضت عليها الأوضاع العالمية فرضاً أن تتخلى عن الاستعمارين العسكرى والسياسى المباشرين ٠٠ إن معنى ذلك أن تترك مصر تمضى إلى نهضتها ومن ثم يمضى العالمان العربى والإسلامى بعدها ، ويتحقق نموذج عربى إسلامى عصرى التطور ، وهو الأمر الذى لن تسمح به ، لأنه أخطر شىء على الحضارة الاستعمارية والأهداف الصهيونية والصليبية!!.

لقد قضت - ببراعة - على الخلافة العثمانية - بعد أن اخترقتها من الداخل وأفسدت نموذجها ، وصنعت من الذين قضوا عليها أبطالا عسكريين وسياسيين ، وجعلت من مصطفى كمال العلمانى المجهول الأصل «أبا للأتراك» (وهذا هو معنى كلمة أتاتورك) ، وبقضائها على الخلافة العثمانية استراحت واطمأنت إلى غيبة الحضارة الإسلامية على ساحة التنافس الحضارى ، وزاد اطمئنانها النموذج الذى صنعته لمؤسسة الدولة العربية والإسلامية بعد الاستقلال٠٠٠ أفتسمح إذن لمصر أو لغيرمصر بتقديم نموذج الدولة الإسلامية العربية العصرية ؟!.

لقد كان على عبد الناصر أن يدرك هذا التحدى وهذه البديهية ، وأن يعمل على استنفار الإنسان المصرى - بكل ما لديه من عقل وخبرة تاريخية وإسلامية من أجل الإفلات من التركيبة التى صنعها الاستعمار ، وساق العرب إليها من أجل أن يمضوا- وهو آمن - إلى حيث يحققون أهداف الاستعمار ، وهم لايشعرون!!.

ولم يستطع الاستعمار أن يخفى أساليبه ولا معادلاته ولا القطار الذى أركب فيه العرب وكثيرا من المسلمين فى كل الأحيان!!.

ولم يقلق الاستعمار بظهور بعض بصماته ، فهذه النسبة التى ظهرت كانت فى حسابات واضعى مخططاته.. وهو -إلى جانب ذلك- يثق بأن لديه من الأساليب ما يضمن تخدير العرب والمسلمين على أوهام كاذبة ، وإرهابهم عن طريق مؤسسة الدولة حتى لا يمضوا

فى طريق صناعة الحضارة ، وحتى لو مضوا بعض الخطوات فى بعض لحظات اليقظة القليلة ، فهو قادر على إرباك خطواتهم اعتمادا على بعض رجاله الأغرار أو الخونة من العرب والمسلمين ، الذين يستخدم نفوذه ووسائله ليمنحهم الأوسمة والألقاب والمناصب وتذاكر الطيران لحضور المؤتمرات المشبوهة!! .

عاملان أساسيان أجهضا نموذج الدولة الحديثة :

ومرة أخرى نعود إلى خيطنا الأول فنحاول الإجابة على السؤال الذى طرحناه حول أسلوب نجاح الاستعمار فى تعطيل دولاب الحضارة الإسلامية عن طريق مؤسسة الدولة التى صنعها ، وعن طريق ما تتمتع به العقلية الاستعمارية من جماعية وعبقرية ، وما يتمتع به العقل العربى والمسلم من فردية وجزئية وشتات!! .

إن الاستعمار -كما نرى- يملك مؤهلات النجاح فى جانبين أساسيين :

فالجانب الأول هو جانب العقل العربى والإسلامى الفردى الجزئى الذى لا يحاول أن يعى حقيقة القطار الذى أركبه فيه العقل الاستعمارى ، وهو (قطار الدولة) الذى حرص الاستعمار على صناعته ، بل وعلى الإكثار من عرباته ، وآلياته ٠٠٠٠ ولقد وقف الاستعمار عندما شعر بحتمية خروجه العسكرى من بلاد المسلمين وراء كل محاولات إنشاء الدول ، بل وكل محاولات إنشاء دولة من دولة ، أو دويلات من دولة (!!) .

وقد كان العرب والمسلمون يرددون فى بلاهة غريبة قولهم المشهور : إن الاستعمار يعتمد فى تحطيمنا على سياسة (**فرق تسد**) ٠٠٠ لكنهم جميعاً -وبالقدر نفسه من البلاهة- كانوا يستميتون فى سبيل ركوب قطار الدول الذى هو قطار (**فرق تسد**) وليهنىء بعضهم بعضاً كلما صنعت عربة جديدة أو لنسمها آلية جديدة ، وغالباً ما يبادرون فيرسلون لبعضهم التهانى فى يوم صناعة هذه

الآلية (**الدولة**) ويطلقون على هذا اليوم الميمون (!!) اليوم الوطنى (وكأن الأيام الأخرى أيام غير وطنية) وبعضهم يسميه (**يوم الاستقلال**) ويتجوز بعضهم متجرئاً على المصطلحات الإسلامية كاشفا عن هيمنة المصطلحات العلمانية فيسميه (**عيد الاستقلال**)!!.

وعند القيام بأى تحليل موضوعى فإننا نتأكد من أن هذا اليوم ليس (إطلاقا) بداية عهد استقلال، بل هو بداية تسلط أقلية مرتبطة بكليات الاستعمار وبرامجه من حيث لاتشعر غالبا (لكنها - وهذه هى المأساة لا تحاول أن تشعر ولا أن تعرف) ومن حيث تشعر أحيانا ٠ ٠ ٠ كما أنه ليس يوم (عيد) لامن الناحية العقلية، إذ إن نتائج هذا اليوم العملية، لاالشعاراتية ولا الإعلامية، هى نتائج ضد الإنسان بيقين، وضد مقومات الحضارة المعنوية والمادية، فما أهدرت كرامة الإنسان المسلم وصودرت أبسط حقوقه - غالبا - إلا بداية من هذا اليوم، فقد كان الاستعمار لذكائه المصلحى - أعقل من أن يمارس هذا الإجرام الذى مارسه أبطال الاستقلال مع (المواطن) المسلم والعربى!!.

أما الجانب الثانى الذى وفر النجاح الساحق للاستعمار فى فكرته الخبيثة، وهى فكرة (الدولة المستقلة) (سياسيا وعسكريا فى الظاهر) والتى لاتملك (فى الواقع) الحد الأدنى من مقومات الدولة الحضارية، فهو جانب المستوى العقلى التخطيطى الرفيع والعبقرى الذى يملكه الاستعمار!!.

إن الذين أقيموا على مؤسسة الدولة فى الأعم الأغلب - لم يفكروا إطلاقا (عبر مؤسسات حضارية معتمدة) فى التعرف على ركائز قيام الأمم ونهضتها، وعوامل انحطاطها وسقوطها ٠ ٠ ٠ فبأى منظور يحكمون (الدولة) إذن؟.

إنهم يحكمون بحرية شديدة وبحركة مباركة وإخلاص كبير كما

يبدو لهم - لكنهم لايدركون أن كل ذلك يتفاعل داخل عربة القطار ،وأنهم مهما نشطوا وتحرروا وألقوا الخطابات الملتهبة وأقاموا المستشفيات والمدارس والمباريات الكروية الرائعة التى يتفوقون فيها حتى على الدول الاستعمارية نفسها ۰۰۰ مهما يكن من أمر هذه الاستعراضات الجزئية والهامشية الرائعة فإنها كذلك - محكومة بقواعد اللعبة ، وتمضى فى داخل العربة ، وسيصل القطار بهم إلى المحطة التى حددها الاستعمار سلفاً ، وهى -على كل حال- لن تكون محطة حضارية ، بل حسبها أن تكون مهرجانا من المهرجانات ، أو زخرفا من البدائل الكرتونية!! .

ودعونا نقدم بعض التطبيقات ۰۰ بدءا من ذلك اليوم المشئوم بحق ۰۰ إنه اليوم الذى يمثل أحد يومين بارزين فى تاريخنا ، يجب أن نحتفل بسوء أثرهما كل عام ، وأن نبكى فيهما دماً كما كان اليهود يبكون على حائط المبكى ، بدل هذه الأعياد الفجة التى نخترعها من أعماق أو هامنا الكاذبة .

إن هذا اليوم المشئوم هو اليوم الذى نجح فيه الاستعمار فى إلغاء (**خلافة**) العثمانيين وإعلان قيام (**دولة**) تركيا العلمانية بقيادة الشخص الذى قبل بيع دينه وولائه لحضارة الإسلام ، وهو مصطفى كمال الذى لقبوه (**بأتاتورك**) ۰۰۰ بل فى هذا اليوم بدأ -فى الحقيقة- مولد إسرائيل ودخول المشروع الصهيونى فى مرحلة التنفيذ!! .

وفى هذا اليوم تحولت (**الخلافة**) إلى (**دولة**) وبدأت عربات القطار تنفرط ، وكان أكثرها قد مهد الاستعمار من قبل لانفراطه ، فهو يسعى منذ قرون لهذا اليوم -كما هى عادته العبقرية فى التخطيط- لكن هذا اليوم - هو البداية الفعلية لتجلى الظاهرة الخبيثة- المسماة مؤسسة «**الدولة**» التى يتزعمها شخص تنحصر همومه -إذا وجدت- فى الحدود الجغرافية للدولة ويتفاعل مع الحضارة الإسلامية -إن تفاعل- ببعض مظاهر (**الصدقة**) لا من

منطلق المسئولية الإسلامية والحضارية والواجب!!.

واليوم الثانى -بالمناسبة فقط- هو يوم سقوط غرناطة وطردنا شر طردة من الأندلس سنة ١٤٩٢م- أى منذ خمسمائة سنة!!.

* * * *

إن العبقرية الاستعمارية نجحت نجاحاً ساحقاً فى الفصل بين عقل الأمة الذى هو الدعاة والعلماء والخبراء والمنظرون وأساتذة التاريخ والحضارة وفلاسفة السياسة والاجتماع البشرى والأنثربولوجيا ... وجسد الأمة الذى هو الحكومة بمؤسساتها المختلفة والشعب المحكوم...

إن (**عقل الأمة**) يعمل فى المساجد والمدارس والجامعات وبعض الصحف، لكن (**جسد الأمة**) لاتربطه به أية جسور عملية.

إن الشباب يحصل على الشهادة الجامعية من مؤسسة تنتمى إلى (**عقل**) الأمة، فإذا ما تحول إلى «موظف» أى إلى عضو فى «جسد» الأمة، انفصل -تماماً- عن العقل - وأصبح موظفا «بيروقراطيا»، غير فاعل، يدور فى فلك نفسه، واستسلم تماما لضوابط الجسد المسماة باللوائح، وربما لم يكن لبعضها أية معقولية، وربما وضعها الاستعمار لتأصيل التخلف وتعميقه!!.

والباحث يحصل على «الدكتوراه» فإذا عين عميدا أو فى السلك الإدارى القيادى، بل إنه إذا تعامل أحيانا مع طلابه، عاش فى إسار الخوف، وانصهر فى الجسد، وفقد روح الإبداع والمبادرة.

وعندما نسأل أنفسنا عن دور الجامعات فى صناعة القرار السياسى أو الاقتصادى فى الدولة، فإننا نجده دوراً هزيلا جداً، وربما انعدم بالمرة، بينما تعتبر الجامعات فى أمريكا وأوروبا المعامل التى تصهر كل المعادلات، وتقدم الخلاصة لصانع القرار، فيأخذها بكل احترام وتقدير وكأنه وجد طوق النجاة.

فعقل الأمة - فى الحقيقة - هو الذى يحكم فى الدولة المتقدمة ، وعقل الأمة مشلول مبعد محكوم، بل مقهور ، فى الدولة الإسلامية ٠

بل إن بعض الدول المنتحرة تعمل على بلبلة عقل أمتها وشعبها ، فهى تأتى بقيادات تنتمى إليها هى - أى إلى الجسد - ليكفيها تبعة أية محاولة يقوم بها عقل الأمة فى اتجاه الحركة ، وفى بعض العهود الثورية القهرية كان الأمر صريحاً وواضحاً ، فقد كان يعين وزراء الأوقاف والتربية ومديرو الجامعات من أهل الانتماء إلى صميم جسم الأمة الذى لا يشعر بأدنى حاجة إلى عقل الأمة ٠٠٠ وكان أقصى نجاحه أن يجعل عقل الأمة فى حالة سكون.

وما يقال فى جهاز الحكم يقال فى الأجهزة المساعدة ، بل وفى المؤسسات الأخرى الاقتصادية والفكرية .

ونسأل أنفسنا هنا إذن: كم من التوصيات التى أصدرها عقل الأمة فى المؤتمرات التى ينفق عليها - غالباً - جسد الأمة - استفيد بها ؟ .

ومع أن المؤتمرين لايقصرون ، وغالبا ما يحاولون إرضاء ربهم وضميرهم وتقديم بحوث جيدة واقتراحات بناءة إلا أن الحكام ينظرون إليهم شذراً ولسان حالهم يقول: **لقد قلتم ماعندكم وأرحتم أنفسكم وهدأتم (أو خدرتم) ضمائركم، فبهذا تكونون قد حققتم ما تريدون، وأديتم ما عليكم، وإلى هنا ينتهى دوركم!!.**

لم تسأل الحكومات فى مؤسسة الدولة نفسها عن جدوى هذا العبث بأموال الأمة ، وجدوى هذا الوأد لعقل الأمة ، مع أنه أمر ليس فى صالحها إطلاقا ، بل هو أكبر معول يهدمها ٠٠٠ فجسد بلا عقل لابد أن يسقط سريعا (!!) لكنه القطار الجهنمى الذى أركبها الاستعمار فيه ٠٠٠ قطار مؤسسة الدولة المعاصرة!!.

لقد حكى لى أستاذ عظيم من أساتذتى ، وهوكاتب كبير

أيضا ، وعضو فى المجالس القومية المتخصصة بمصر ، أن الأعضاء فى هذه المجالس يقومون بواجبهم، ويقدمون دراسات جيدة ، لكن جهاز الدولة لا يعبأ بها ٠٠٠!!.

وأنا أعلم أن الدكتور محمد عبد القادر حاتم رجل رصين وواع ، وهو رئيس هذه المجالس القومية ، وله كتاب رائع عن أسباب تقدم اليابان، فهو وثيق الصلة إذن بتجربة دولة ناجحة -بالمقاييس الحضارية المادية- وله خبرته المعروفة ، فكيف فشل مع ذلك فى إقامة الجسور بين هذا الرافد الذى يرأسه من روافد عقل الأمة وبين جهاز الحكم!!.

إننى بالطبع أعلم أننى أقدم بحديثى هنا بعض الإجابة نيابة عن الدكتور حاتم، بل وبعض العذر ، فمؤسسة الدولة المعاصرة ، ما دامت هذه هى تركيبتها فى عصر الاستقلال السياسى، فإن من الصعب على الدكتور حاتم والمجالس القومية اختراق هذا التركيب(!!) وهذا صحيح، لكننى كنت أريد منه، ومن غيره من المخلصين القائمين على أمر المؤسسات المناظرة فى العالم الإسلامى أن يواجهوا الشبح الكبير بحقيقة تركيبته ، وأن يحاولوا التعاون معه على معرفة حقيقته ، وإعادة تركيبه بعد فكه سلمياً ، بواسطة التعاون بينه وبين عقل الأمة ، وذلك بهدف إزالة الألغام التى وضعها الاستعمار فيه ، والتى تمنعه من الوقوف فوق قضبانه هو ، ومن الاتجاه إلى محطته ، ومن معرفة ذاته ، وماذا يأخذ ، وماذا يعطى فى سوق الحضارة المعاصرة .

إننى أنطلق هنا من رغبة صادقة فى الإصلاح، ولست صاحب حركة ولا مذهب فى المعارضة أو المقاومة، وليس لى أى مطمح سياسى ، بل وقد عرفت بأننى أرفض (**أو أضعف!**) فى الاصطدام بالحكام، بل لا أرى ذلك سبيل إصلاح، بل هو تكديس للمشكلات وتعقيد للتركيب.

وفى ضوء هذا فأنا لا أرى ما يراه بعض المتطرفين من أن كل

مؤسسات الدولة فى العالم الإسلامى مجردة من الإخلاص، ومـن الرغبة الصادقة فى الخروج من المعتقل الاستعمارى، لكن المشكلة هى فى مجموعة الأطباء الذين يستطيعون إقناعهم بضرورة عمل الكشف الشامل والتحليل الكامل بواسطة فريق كامل (كونسلتو) من الأطباء الحاذقين المستوعبين لجهاز الدولة ... والمهم أن يقنعوهم بأزمة الجسد، وبحتمية العلاج، وإلا فإن الانفصال سيظل قائما بين المخ والأعصاب المؤثرة، والأعضاء المنفذة!!.

أليس عجيبا -بعد نصف قرن من استقلال أكثر الدول الإسلامية -ألا تقوم دولة واحدة بتشكيل لجنة ذات مستوى رفيع، ومن عدد كاف من الأعضاء الثقات الأكفاء -لدراسة (**شـروط النهـضة**) و (**مؤهلات الحضارة**) و (**الموقع الحضارى الخصوصى لها**) ... أو قسماتها الحضارية التى لا يجوز أن تبيعها أو تساوم عليها، و (العوامل المشتركة القابلة للتفاعل) و (الأفكار والمعلومات والتصاميم) التى يجب أن تأخذها - أو تسرقها كما سرقت اليابان أحياناً - من الآخرين ؟!!.

أليست هذه الغيبوبة أمراً عجيباً ؟!.

وكيف -ياترى- يتحرك قطار هذه الدول المنشغلة بالجزئيات والمشكلات اليومية والعلاقات الجزئية والإنجازات الصغيرة من بناء مستشفيات ومدارس ورصف طرق وتوفير الحد الأدنى لبناء الحياة فى مستواها الإنسانى الأدنى ؟!.

ليس المهم أن تقوم دولة بتشكيل لجنة لهذه القضية المصيرية، فهذا- ربما- يبادر إليه الآن عشرات من هذه الدول، لكن الأهم من تشكيل اللجنة المعنية بشروط النهضة ومؤهلات الحضارة -أن تلزم الدولة التى أمرت بعقد اللجنة نفسها وأجهزتها الفاعلة -ابتداء وقبل عقد اللجنة - بالأخذ بما تنتهى إليه اللجنة ... وإذا كان لديها اعتراض على أمر ما، فليكن الاعتراض بلجنة أخرى فى المستوى الحضارى نفسه .. وليس بقرار سياسى من الدولة!!.

وأمر آخر يأخذك العجب منه بشأن هذه المؤسسة «الدولة» فى العصر الحديث٠٠٠

ففى معظم هذه الدول وزارات تسمى وزارات التخطيط، لكنهم ينظرون إليها على أنها وزارات ثانوية، ويعتبر وزيرها وزيراً من الدرجة الثانية، فوزارته ليست من وزارات الاستراتيجية، أو الحكم الأساسية٠٠٠

وفى معظم هذه البلاد قد تجد مراكز للدراسات الاستراتيجية يكلف بالإشراف عليها ناس مثقفون، لكنهم -غالباً- من الذين ينتمون للحاكم والدولة، لا للأمة وثوابتها الحضارية!!.

وأيا كان الأمر فمع وجود هذه الوزارات وهذه المؤسسات التخطيطية أو الاستراتيجية تبدو الدولة فى حالة شلل كامل وعمى تام عن استشراف آفاق المستقبل٠

بل إنه من السخرية المخزية أن بعض الأمور المستقبلية تكون واضحة تماما فى أذهان المثقفين وأنصاف المثقفين، وربما كان الناس يتحدثون عنها فى مجالسهم ويؤمنون بأنها ستقع كما يؤمنون بأن الشمس ستطلع غداً من المشرق٠٠ وفعلا تقع النوازل ويهجم الأعداء، أو يحصد الأعداء المغنم، أو يصلون إلى غرضهم المعروف٠٠٠ وتبدو الدولة (**بكل هذه الأجهزة الجبارة**) وكأنها كانت صنماً لا يعقل، أو كأنها كالزوج المخدوع «**آخر من يعلم**»٠٠٠!!

إن المفكر المعروف الدكتور « **زكى نجيب محمود** » يشير إلى هذه « **العجيبة** » فى تركيبة بعض الدول، ومنها الدول المسماة بالدول العربية[1] فيقول: «انظر إن شئت إلى الحياة العربية فى

---

(١) نقول المسماة بالعربية لأن عروبة بعض هذه الدول يرجع لمجرد أنها عضو فى جامعة الدول العربية، لها حق تعطيل القرارات وتمزيق الصف، لكن بعض هذه الدول لا تعترف بالعربية فى التعليم، ولا سيما الجامعى، مع أن بعضها مستقل شكلا منذ ربع قرن إلا أن التعريب فيها متعثر واللغة الأجنبية هى السائدة ولها دعاتها الأقوياء الممكنون من الإعلام والتربية بواسطة إدارات هذه الدول!!.

تاريخها الحديث، لترى كم دهمتها المفاجآت، التى لم تكن فى الحقيقة مفاجأة، بل لبثت كل واحدة منها تغزل خيوطها وتنسج مؤامراتها أعواماً طوالا، ونحن عنها غافلون، أو كالغافلين ٠٠٠

لأننا ربما عرفنا شيئاً عما يدبر لنا فى سواد الليل، لكننا نسهو ونغضى لانشغالنا بما بناه لنا الخيال فى رؤوسنا، حتى إذا ما أصبح علينا صباح فاجأتنا المفاجأة التى لم تكن قد ولدت منذ لحظة، بل ظلت هناك تبيض وتفرخ فى صدور مدبريها أو فى جحورها، لتباغتنا وكأنها بنت لحظتها، (١) **-فهل مثل هذه الدولة - بهذا الشلل- مؤسسة وطنية صادقة الأهداف والولاء، صحيحة التركيب؟.**

أتعتبر- بحق- دولة، تلك التى يدرك أفراد كثيرون من شعبها أفضل مما تدرك، ويبصرون أعمق مما تبصر، ويرقبون المستقبل مسلحين بثوابت فى أبجديات الصراع الحضارى أفسح كثيراً مما ترقب؟!!.

ويزداد عجبك من أمر هذه المؤسسة عندما تراها تضيق بهؤلاء المدركين المبصرين، وتستهزئ بهم وتجرئ عليهم صغارها وسفلتها من باعة الضمائر والأقلام ٠٠٠!.

- وبدلا من أن تضع يدها فى يد المبصرين المخلصين -وتوفر لهم الإمكانات والشعور بالكرامة تلعب ببعضهم وتسعى لتحويلهم إلى أجزاء من كيانها المتهرئ، فيتحول الطبيب إلى ترس فى الجهاز المريض الذى يمضى إلى حتفه محفوفاً بالهتافات والتصفيق والشعارات!!.

وبإيجاز، لنقدم هنا فى هذا المقام (**جدولة**) مبدئية متخيلة لأهم الفروق بين خصائص الدولتين: الدولة الطبيعية الحقيقية، والدولة الصناعية المزيفة، فلعل هذا مما يعين على تحديد الأمور ٠٠

---

(١) جريدة الأهرام: العدد الصادر بتاريخ ١٩٨٨/١١/١ من مقال بعنوان: (العروبة موقف٣).

مقارنة
بين أهم خصائص
الدولتين : الحقيقية والمزيفة

	الدولة الحقيقية	الدولة المزيفة
١	دولة ولدت بتطور داخلى وبتكافؤ بين المستوى الحضارى والصعود السياسى.	-ولدت بعوامل خارجية وبدون تكافؤ بين المستوى الحضارى والتسلط السياسي.
٢	دولة تستمد وجودها من الشعب والعقيدة.	-دولة يستمد الشعب وجوده منها.
٣	أمن الشعب أولا والوطن فوق الدولة.	-أمن الدولة أولا والدولة فوق الوطن.
٤	الإنسان أغلى رأس مال.	-الإنسان أرخص سلعة.
٥	الدين واللغة والتربية والتاريخ لامساومة عليها.	-كل شئ قابل للبيع بالتقسيط حتى لاتفتضح الدولة.
٦	توفير ضرورات الحياة قرار سياسى، ومصيرى وجزء من السيادة.	-المساومة على الضرورات وتعريض الشعب للموت والذل
٧	العلم مخدوم.. ليخدم بحرية	-العلم خادم موجه.
٨	القانون يحكم الجميع.	-القانون يحكم الضعفاء.
٩	دولة تحمى وتخدم وتحكم.	-دولة تحكم وتحمى.
١٠	الشرطة تخدم وتحمى.	-الشرطة تحكم وتحمى.
١١	الديمقراطية تكامل لمصلحة الوطن.	-الديمقراطية صراع لمصلحة الدولة.
١٢	الوزراء سلطة فنية حقيقية.	-الوزراء سلطة شكلية.
١٣	كرامة المواطن من كرامة الوطن.	-انتهاك كرامة المواطن بحجة حماية الوطن من المواطن.
١٤	النسبة مقبولة بين أقوال الدولة وأفعالها.	-الدولة كاذبة والشعارات بديل ذهنى للحقائق ولا نسبة بين الأقوال والأفعال.
١٥	الرأى الآخر صمام أمان للدولة.	-الرأى الآخر عدو للدولة.
١٦	الحاكم ممثل الشعب لدى الدولة ويخرج من الحكم بإدبار الشعب عنه.	-الحاكم أكبر أجزاء الدولة ولايخرج من الحكم إلا بإقبال الموت عليه.
١٧	أقرب أبناء الشعب إلى الدولة المخلصون للوطن والأكفاء.	-أقرب أبناء الشعب إلى الدولة المخلصون للحاكم.
١٨	الحاكم زاهد متواضع مؤمن محبوب يحترم النظام والقانون.	-الحاكم مترف مغرور مبغض يؤثر المنافقين.

نماذج من الدول التي صنعتها الفلسفة الاستعمارية في المحيط الإسلامي :

مع بداية بزوغ عصر زوال الاستعمار التقليدي، عقدت الامبراطوريات التي تكاد الشمس تغرب عنها مؤتمرات علنية وسرية لدراسة أفضل وسائل التعامل بالنسبة لمصالحها مع الأوضاع العالمية الجديدة التي أصبحت ترفض الاستعمار المباشر بالقوة والإكراه.

وقد تمخضت هذه المؤتمرات والدراسات عن هذا التخطيط للنظام العالمي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية!!.

فبدلا من مظلة استعمارية واضحة مفروضة بالقوة، وصاية أوحماية أو انتداباً، تبعثر هنا وهناك دولا تفتقد المقومات الأساسية للدول، بحيث تكون بطبيعتها وبضعف بنائها في حاجة ماسة إلى الدول الاستعمارية فكرياً واقتصادياً وإدارياً وعسكرياً.

إن الاستعمار في هذه الحالة سيكون مطلوبا لاطالباً، ومرغوباً لامفروضاً، وبدون وجود جيوش استعمارية تشكل عبئا مادياً ونفسياً على الدولتين المستعمرة والمستعمرة، بل بتهافت تقف الدول المستقلة (!!) ذليلة على أعتاب المستعمر ليمنحها القروض القاتلة، والقمح البطيء!!.

ولقد ذهب الاستعمار يقسم الخريطة العالمية، والإسلامية بخاصة، تقسيماً بالغ التعقيد، ففي داخل القارة السوداء أفريقيا دول تابعة للأمم المتحدة تعيش فكرياً واقتصادياً على فتات المائدة الاستعمارية، بينما يمتص الاستعمار في كل يوم بعض مقومات حياتها.

وفي العالم الإسلامي شق - على مراحل - بعض الأجزاء الجغرافية المتناقضة، ليسمح باقامة كيانات إسلامية تحمل في أحشائها جراثيم التناقض والمرض، ومن هنا فإن دولة (باكستان) لم تلبث أن انقسمت إلى دولتين، بإضافة كيان كبير هزيل جديد

(بنجلاديش) بينما تنفرد الأكثرية الهندوسية التى تزيد عن خمسمائة مليون بنحو مائة وثلاثين مليوناً من المسلمين تفتك بهم وتنشىء الأحزاب المتعصبة التى تضع فى برامجها الانتخابية إبادتهم أوطردهم من الهند أسوة بمسلمى الأندلس!!.

أما فى المحيط العربى فقد افترست القوى الاستعمارية الخريطة الجغرافية، وجعلت من أكثر بلاد الشام والخليج قطعاً متفاوتة لاتمتلك - بحالتها الدولية الراهنة - أدنى مقومات البقاء!!.

وأعتقد أن حرب لبنان الطائفية التى تزيد عن اثنى عشر عاما والتى هدمت كل مقومات الدولة، وحولتها إلى طوائف مسلحة متناحرة فكراً وسلاحاً وولاء .. هذه الحرب نموذج مكبر للنهج الاستعمارى فى إقامة الدول!!.

وقد مسحت شخصية الدولة الفلسطينية الشامية من الوجود وظهرت إلى الوجود دولة (الأردن) التى يجتمع أفرادها تحت علم واحد ودستور واحد، لكن أكثريتهم تحن إلى الدولة الأولى (فلسطين) ويخشون أن تكون الأردن البديل لها ...!!.

وإذا التفتنا إلى الخليج وجدنا عجباً، فنحن نشعر كأننا نعيش عصر أمراء الطوائف فى الأندلس بكل ملامحه، فبعض هذه الإمارات تصر على مزج كلمة «دولة» باسمها وكأنها جزء من هذا الاسم، وبعض هذه الإمارات لا تزيد مساحتها ولا عدد سكانها الذين يحملون جنسيتها على بعض المدن الصغيرة الموجودة فى أكثر الدول الطبيعية (!!) ومع ذلك فلكل دولة سفارة فى كل -أو معظم- بلاد العالم، ولها وزراء يعتقدون أنهم مثل وزراء أمريكا وبريطانيا والصين ويقابلونهم مقابلة الند للند!!.

لقد أصبح مصطلح «**الدولة**» باهظ الثمن، وحتى جامعة الدول العربية أصرت العقلية الاستعمارية على احتفاظها لهذه الكيانات بكلمة (دول) ضمانا لعدم وقوع (وحدة) حقيقية تقفز بهذه الدول إلى المستوى الجدير بمصطلح (الدولة)!!.

«إسرائيل» واليابان نموذجان للدولة الحقيقية :

أما اليهود فقد نجحوا ، ونجحت القوى الصليبية المؤيدة لهم فى أن ينشئوا لأنفسهم وسط هذه الفوضى دولة خاصة بهم يقيمونها - لذكائهم وخبرتهم - على قواعد الدولة الطبيعية الصحيحة ، ومن ثم تصبح هذه الدولة (إسرائيل) التى كان العرب - حتى كبارساستهم - يصفونها بأنها دولة (**شذاذ الآفاق**) التى ستنتهى تلقائياً لأنها فى رأى زعمائهم - «لاتمتلك مقومات البقاء» ٠٠ فتصبح هذه الدولة (اللقيطة) هى الدولة الأقوى التى تقف على قواعد ثابتة ، وتمتلك بوضوح وقوة المقومات الأساسية للدولة الطبيعية :

- فهى تملك الدين والعقيدة وتؤمن حتى بخرافات التوراة وترفض التجرؤ عليها أو نقدها باسم (العقلانية) أو (الحداثة) أو (العصرنة)!!.

- بل تسمى نفسها - متحدية كل العرب والمسلمين المنهزمين - باسم نبيها (يعقوب) عليه السلام !!.

- وهى تمتلك (اللغة العبرية) التى تفرض تعليم الطب والهندسة وكل العلوم الانسانية والتكنولوجية بها ، ولاتسقط فيما سقطت فيه جامعات العرب ، ومنها الأزهر والجامعات الخليجية من اعتماد اللغة الانجليزية لغة للعلوم التطبيقية ، بينما يعتمدون اللغة الفرنسية فى تونس والمغرب ٠

- وهى تمتلك الديمقراطية الحقيقية وتحسن تسخيرها لخدمة أهدافها الثابتة ، بل وتوجه سياستها العالمية - كذلك - دون مداراة لخدمة كل يهودي فى الأرض ٠

لقد كان اليهود - كما ألمحنا - واضحين مع سنن الله فى قيام الدول والحضارات فأقاموا دولتهم على المقومات الصحيحة للدولة ، وتمسكوا أشد التمسك بالثوابت التى تحفظ للدولة ذاتيتها وتميزها الحضارى ٠

وعندما هزمت اليابان فى الحرب العالمية الثانية بعد ضرب أمريكا لهيروشيما ونجازاكى بالقنبلة الذرية ، وأعلن امبرطور اليابان المنهزم (هيروهيتو) استسلام اليابان فى (١٥ أغسطس ١٩٤٥م) وفرض ذلك على اليابانيين الذين كانوا يرفضون الاستسلام، قبلت اليابان كل الشروط الأمريكية الاستسلامية إلا الشروط التى تمس الثوابت اليابانية وعلى رأسها (الدين)، و (اللغة اليابانية)، وشخص (الامبراطورالمقدس) وأى تدخل فى (التاريخ اليابانى)من قبل الإدارة الأمريكية !!.

هذا بينما تتدخل إسرائيل الآن فى تعديل المقررات الدينية والتاريخية لبعض البلاد العربية، بل وتفرض إلغاء بعض نصوص القرآن من المقررات المدرسية!!.

ولهذا نجح إمبراطور اليابان المنهزم (هيروهيتو) فى إعادة اليابان إلى دولة عظمى تهزم أمريكا فى المجال الاقتصادى والعلمى، بينما سقط أبطال الشعارات وحكام الدول المستقلة، الذين يساومون على ثوابتهم ويبيعون دينهم ولغتهم وأركان حضارتهم فى أسواق المساومة السياسية والاقتصادية!!.

إن اليابان، مثل إسرائيل، تعرف قيمة الثوابت، أما الذين يصنع الاستعمار الماكر لهم بعض الدول أو (المدينة الدولة) -City-state- فهم مستعدون لبيع كل الثوابت، وكل ثروات الأمة، وكل تراثها المعمارى والأدبى والفنى والإبداعى مقابل أن يشعروا بزهو كاذب، وبلحظات استعلاء خادعة .. ولم لا ؟ أليسوا دولة ؟!!.

لكن سنة الله لا تتخلف، فحتى لو اجتمع العالم كله -لظروف خاصة ومصالح عابرة- للدفاع عن الكيانات التى لا تحمل المقومات المؤهلة للبقاء وصناعة الحضارة، فسوف يكون مصير هذه الكيانات وأصحابها وشعوبها -ما لم تتدارك اللحظة التاريخية- نفس المصير الذى أصاب أمراء الطوائف فى الأندلس، وما أصاب الملوك وأبناء غرناطة بعد سقوطها (١٤٩٢م - ٨٩٧هـ) ..

نعم إنهم دول٠٠ لكنهم -مع ذلك- غثاء كغثاء السيل، وقد رضوا بالحياة فى المسكن الهش المظلم الذى بناه لهم عدوهم، بل وفرحوا به، مع أنهم يعلمون أنه لم يؤسس على المساواة والأخوة والشورى والتقوى!!.

لقد أسست هذه الكيانات المغلقة بديلة للكيانات الأعظم فى التاريخ الإنسانى كله٠٠٠ بديلا لدولة الأخوة الإسلامية المنفتحة العالمية٠٠٠٠ بديلا للدولة التى قامت على الفكرة (العقيدة) التى تتجاوز الأرض، والجنس، واللون، والمادة الفانية٠٠

الدولة التى لا تفرق بين المؤمنين بعقيدتها -فواصل الجنسية والحواجز الجمركية، ونعرات الوطنية والقومية، بل هى ترحب بكل من يأتيها مؤمنا بأهدافها منطلقا من ثوابتها ملتزماً بشريعتها ٠٠٠ إنه فوراً يحصل على جنسيتها [١]، ويصبح مثل كل أبنائها الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم!!.

إنها لم تكن (فكرة) تجمع الناس على (أرض) محددة لغايات روحية ومعنوية، وأخلاقية، على حساب (المقومات المادية) للدولة٠٠٠ كلا، بل إنها استوفت كل الشروط والمقومات الدولية٠٠ مادية ومعنوية٠٠٠

- استوفتها بعقيدة الذين انضموا إليها وإرادتهم وكدحهم٠٠٠
- واستوفتها بالاختيار الحر، لا بالقهر الوراثى، أو بالانتماء العشوائى، أو (بالحقوق) المكتسبة لمجرد النشأة والانتماء، بل استوفتها (بالواجبات) التى ولدت حقوقاً، و (بالعمل) الذى أفرز

---

(١) وكل يهودى يصل إلى إسرائيل اليوم يحصل (فوراً) على الجنسية وعلى كل الحقوق التى يتمتع بها شامير، بينما يطرد فوراً من بعض الدول الخليجية أى عربى مسلم خدمها ولو عمره كله إذا انتهى عمله!!.

إنتاجاً ، وبالفرد المنسجم فى داخله ومع محيطه الذى يسعى مضحيا بكل ما يملك فى سبيل تكوين دولة العقيدة القائمة على أعمدة (الأخوة) و(الشريعة) و(الدعوة) للأقربين والإنسانية جمعاء!!.

وإذا كانت المقومات المادية للدولة الحقيقية هى (الأرض) ، أو الإقليم الجغرافى الذى يسمى بالوطن، و (الناس) ، أو الإنسان الذى يعيش فى هذا الإقليم، ويرغب فى الدفاع عنه و الانتماء إليه ، و (السيادة) ، أى السلطة العليا أو العامة «sauverainete» فإن الدولة الحقيقية (الإسلامية) لابد لها من استكمال هذه الشروط - كحد أدنى - فليست الدولة الإسلامية فكرة طوباوية ، بل هى دولة واقعية بكل معنى الواقعية اللائقة بإنسانية الإنسان ومكانته ورسالته ..

وفى كل الدول التى أنشأها الإسلام، وهى كثيرة جداً فى التاريخ الإسلامى على مساحة الرقعة الإسلامية توافرت هذه الشروط ، لكن هذه الشروط قد تكفل صناعة دولة عادية تفتقر الروح والضمير والفاعلية والرسالة الخالدة. أما دولة الإسلام فقد - توافرت لها الأعمدة الأخرى التى أصبحت - إلى جانب ذلك - دولة تعبر عن الإنسانية الحقة وتحقق الخلافة عن الله فى الأرض ، وتسمو بالإنسان الفرد والجماعة إلى أزكى ما يستطيع أن يصل إليه ... إنها تستثير فيه كل إمكانية الخلافة ، وكل كوامن فطرته الزكية ...

ومن أغرب الغرائب أن يكون العرب والمسلمون الذين قدموا النموذج الأعلى لهذه الدولة فى التاريخ النبوى والراشدى ، وقدموا نماذج إسلامية أخرى رائعة تقترب من النموذج الأعلى ... من أغرب الغرائب أن يكون هؤلاء أنفسهم هم الفئران التى يجرى عليها الاستعمار تجاربه المعملية الآن ، ومنذ أكثر من نصف قرن ، لتقديم نموذج لدولة يراد لها أن تشيع وتبرز فى إطار هذا النموذج الذى ذكرناه ... دولة قد تملك كل المقومات المادية ، بل قد تملك

رصيداً مبعثراً من المقومات المعنوية ، ومع ذلك فإنها لا تقدم شيئاً مما تقدمه الدولة الطبيعية.. بل إن همها الأكبر - من حيث تدرى أولا تدرى - أن تحقق للاستعمار كل ماحاول تحقيقه ، وبعض ما عجز عن تحقيقه ... إنها تدمر الثوابت، وتقهر الإنسان، وتعلمه العبودية ، وتدربه على قبول الذل ، وتقتل فيه الإبداع ، وتستورد له أبشع وسائل التعذيب، وتحول عملته العالمية إلى عملة محلية ، وتصرفه عن زراعة أساسات حياته ، وعن الإبداع الصناعى ، وتحوله إلى إنسان كسول ومستهلك ... وكل ذلك وغيره يمضى وسط ضجيج هائل من الشعارات والوعود الكذوب...

وحتى مجرد التفكير الحضارى العاقل فى إصلاح المسار يعد تمرداً وخروجا عن الطريق المرسوم !!!.

هل الدول الحديثة قطع شطرنج فى لعبة ثابتة القواعد ؟

ثمة مؤتمرات استعمارية كثيرة تقاسم فيها أقوياء العالم هذا الكوكب الأرضى الصغير ، كما يتقاسم الآكلون قصعة الطعام .

ومن المؤتمرات الشهيرة فى هذا المجال مؤتمر سايكس بيكو ، ومؤتمرات طهران ويالطا وبوتسدام التى اقتسم فيها - ظاهريا - روزفلت وتشرشل وستالين العالم.

وأنا على يقين بأن مؤتمرات القمة الأوربية الأمريكية لديها تقسيم آخر لمجموعة «الدول» الواقعة فى المحيط الإسلامى والعربى ، ولدول العالم الثالث الذى تعتبره الأرض البكر لامتداد حضارتها وعقيدتها . ولكن قرارات هذا التقسيم غير معروفة (سرية) وإن كانت المؤشرات كلها لاتحوج إلى إعلانها ، فطلاب الدراسات العليا في العلوم السياسية الذين أوتوا حظاً من الفقه الحضارى وإدراك ثوابت الصراع العالمى يستطيعون إدراكها أهدافاً ووسائل .

وإلى جانب طلاب العلوم السياسية هناك مخلصون كثيرون مثقفون يستطيعون إدراك هذه المخططات من خلال قراءتهم للفكر .

وحسبى هنا أن أقدم نموذجاً واحداً من الأفكار الاستراتيجية المطروحة ، والتى تؤكد لنا أننا قادرون على إدراك أبعاد اللعبة السياسية الدولية التي تمارس ضدنا فى شرقنا العربى والإسلامى .

ففى عنوان فرعى واضح من كتاب (السياسة الدولية والشرق الأوسط) [(١)] لمؤلفه : (ل . كارل براون) يوضح العنوان هكذا بكل وضوح: "قواعد لعبة المسألة الشرقية" . . وتحت هذا العنوان يقول المؤلف بكل ثقة : «تتميز لعبة العلاقات الدولية المتواصلة فى الشرق الأوسط على الأقل منذ أوائل القرن التاسع عشر بالقواعد التالية . . .» [(٢)]

(١) ترجمة عبد الهادى جياد / نشر دار الشئون الثقافية العامة ببغداد /ط١ /١٩٨٧م والاسم الكامل للكتاب هو (السياسة الدولية والشرق الأوسط: قواعد لعبة خطيرة).

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٤، ٢٥، ٢٦.

ومن ثم، وبعد ذكر هذه المقدمة الواثقة فى وجود لعبة لها قواعد ثابتة ضد الشرق الأوسط، يورد المؤلف عدداً من هذه القواعد نختصرها فى القواعد التالية :(١)

١- يتحد العديد من اللاعبين السياسيين الإقليميين وغيرهم، وينقسمون فى أنماط متغيرة من التحالف.

٢- تميل أنماط عقد التحالفات وحلها نحو الشمولية، ويدخل الأشخاص الخارجيون فى العملية حتى يتورط الجميع وتتطور الثنائية وتتحول إلى تعددية الأطراف.

٣- تتميز دبلوماسية المنطقة بقراءة مركبة مبالغ فيها لقضايا تبدو صغيرة واهتمامات دولية رئيسية، فالحدود التى تقسم القضايا المحلية والقومية والإقليمية والدولية غير واضحة المعالم.

٤- تتخذ المبادرات الدبلوماسية المتولدة داخل المنطقة -أكثر من أى أجزاء أخرى فى العالم- بغية معرفة رد الفعل فى العالم الخارجى. فالشرق الأوسط من أكثر الأنظمة الدبلوماسية «اختراقا» فى العالم.

٥- النظر إلى اللاعبين الإقليميين وفق معايير التحالفات خارج المنطقة فنعتبر الدولة (س) «أفضل صديق لنا» أما الدولة (ص) فهى «مخلب القط لعدونا».

٦- إن تلك الميزات الخاصة تجعل الفاعلين السياسيين فى الشرق الأوسط ينزعون إلى تفضيل أفعال وأساليب سياسية منها :

أ- سياسة الأمر الواقع المحدودة أو «الانتزاع السريع» والوجه الآخر لذلك هو النفور بالمراوغة من قبول أية تغييرات فى حالة الأمر الراهن مهما كانت صغيرة.

ب- عدم الرغبة فى تقسيم النزاع أو المواقف التساومية إلى قضايا رئيسية وفرعية، وكل شىء ليس متداخلا مع بعضه والبعض الآخر

---

(١) براون: السياسة الدولية ص ٢٥، ٢٦.

فحسب، وإنما هناك تردد فى وضع أسبقيات، سواء كان ذلك على أساس التسلسل أو الموضوع، واستنادا إلى ذلك توجد ندرة فى نقاط «التغيير الصغير» الذى يمكن أن يقبل به أى طرف من أجل المبادرة بالمساومة أو كسر حالة الجمود.

جـ- تفضيل قوى للسياسة الارتجاعية أو الضرب المعاكس دبلوماسياً (تشجيع المبادرات المحدودة مثل حالة «الانتزاع السريع» والمناورة مع الأطراف الأخرى لتتخذ موقفاً يمكن بعد ذلك استثماره).

د- تفضيل بارز لإجراء مساومة سياسية دقيقة من خلال استخدام أطراف أخرى تصبح بسبب هذه العملية متورطة بشكل وثيق، وغالباً ما تصبح ضامنة للترتيبات التى يتم التوصل إليها.

هـ- براعة مهمة فى "التكتيكات" غير أن اهتماماً أقل يمنح للاستراتيجية وغالبا ماتضيع معالم التمييز بين التكتيك والاستراتيجية

ويوجد ميل إلى شيوع عقلية اللعبة السياسية التى تعتمد على مايسمى «مقدار الصفر»[1] حيث يجب أن تكون المكاسب التى يحققها أحد اللاعبين ناجمة بالضرورة عن خسارة متناسبة متساوية للاعب آخر أو لاعبين آخرين (فكأن الأمر دائماً فى حالة خسارة أو توقف).

وتطبيقا لهذه القواعد التى تدور حولها لعبة إنهاك دول العالمين الإسلامى والعربى بمشكلات دائمة، وعدم إعطائه الفرصة كى يبدع شيئاً أو يسير فى طريق الوحدة أو التطور الحضارى الذى يحتاج إلى

(١) استخدم المؤلف عبارة (zero-sum) لتأكيد مبدأ التناسب الطردى بين ربح طرف وخسارة طرف آخر، أى عندما يكسب الطرف (س) الجولة، ويخسر الطرف (ص) بالضرورة هذه الجولة. «المترجم» (أنظر المرجع السابق ٢٦ وما بعدها).

تكامل وتكتل فى مواجهة التكتلات والأيديولوجيات العالمية المطروحة ... تطبيقا لهذه القواعد تعاونت أمريكا وأوربا على زرع إسرائيل فى القلب العربى، كما تمت زراعة الأحزاب العلمانية والشيوعية والقومية والإقليمية، بل وأحزاب عبادة الأشخاص كالناصرية...

وعلى المستوى النظرى والعربى جاءت فكرة إقامة (جامعة الدول العربية) لتؤكد هذا الاتجاه إلى فرض الشلل خضوعاً لقواعد اللعبة الدولية التى تحكم المسألة الشرقية... إنها مجرد تجمع (لدول) تجمعها (روابط) و (مصالح) مشتركة. وليس فى بنيتها ولا تركيبها النظامى ما يوحى إطلاقاً بأى احتمال (وحدة)، بل إنه (وكأنها غير موجودة) تقام أشكال من الوحدة بين مجموعات من الدول الأعضاء فيها الذين تضمهم أرض واحدة، ومع نسبية هذه الأشكال إلا أن ما يهمنا التصريح به هنا هو أن هذه الأشكال تعنى أن بنية الجامعة المسماة (بجامعة الدول العربية) لا يعول أحد عليها فى تحقيق وحدة!!

ولهذا تجرى المحاولات الإقليمية للوحدة بعيداً عنها!!

* * * *

وتبدأ قصة تكوين هذه الجامعة فى ظروف تحتاج إلى تحليل ودراسة!!

فبينما كانت رحى الحرب العالمية الثانية دائرة على أشدها، أعلنت بريطانيا عن عطفها على أفكار استقلال بعض الأقطار العربية، وترحيبها بأى عمل فى اتجاه الوحدة العربية وجاء هذا الإعلان على لسان وزير خارجيتها (إيـــدن) فى ٢٩ أيار/مايو ١٩٤١م، وكرره فى ٢٤ شباط/فبراير ١٩٤٣.[١]

(١) لنلاحظ أنه فى هذه الفترة كانت اللمسات الأخيرة توضع لقيام دولة إسرائيل وبداية مشروع تجميع يهود العالم!!، ولنلاحظ التركيز على فكرة الوحدة (العربية) بمفهومها الأيديولوجى!!.

لم تبدأ الحكومات العربية البحث الجاد فى هذه الفكرة (البريطانية الأصل) إلا بعد الإعلان الأول بعامين، حيث تقدم نورى السعيد فى ١٤ كانون الثانى / يناير ١٩٤٣م إلى بريطانيا بمذكرة متضمنة مشروعاً اتحادياً . (وما دخل بريطانيا بالموضوع؟!!) .

بعد تصريح (إيدن الثانى) اقترح نورى السعيد عقد مؤتمر عربى لبحث الموضوع، غير أن وزارة الخارجية البريطانية رفضت هذا الاقتراح خشية منها أن يستغل من أجل الدعاية الصهيونية وإثارة الجماهير العربية ضد بريطانيا .

ثم قادت مصر سلسلة من المشاورات الثنائية والجماعية منذ يوليو ١٩٤٣م أسفرت عن وجود اتجاهين مختلفين حول شكل الوحدة العربية المطلوب تحقيقها .

الاتجاه الأول: يدعو إلى الوحدة الفيدرالية أو الكونفيدرالية بين الأقطار العربية، وهو الاتجاه الذى تبنته أساساً الحكومة السورية، ودافعت عنه بحماس واضح. وهذا النوع من الوحدة يتضمن سلطة عليا تفرض إرادتها على الدول المنضمة إليها فتفقد قدراً من سيادتها واستقلالها داخل الدولة الموحدة، وهذه الدرجة ترتفع فى حالة الفيدرالية وتنخفض فى حالة الوحدة الكونفيدرالية (وبالطبع فمثل هذا الاتجاه مرفوض بريطانياً وأمريكياً ودولياً لمخالفته لقواعد اللعبة التى تحكم المسألة الشرقية!!) .

أما الاتجاه الثانى: فقد اكتفى بالدعوة إلى شكل يسمح بتعاون وثيق بين الأقطار العربية المنضمة له ويحافظ على استقلالها وسيادتها (أى تشرذمها وضعفها وتآكلها) وهذا ما فضلته بقية الدول العربية عدا مصر التى ظلت بعيدة عن تأييد أى من الاتجاهين رسمياً ...

وفى قصر الزعفران بالقاهرة اجتمعت اللجنة التحضيرية يوم ١٧ آذار مارس ١٩٤٥ للنظر فى مشروع الميثاق الذى أعدته اللجنة الفرعية ٠ وتم توقيعه يوم ٢٢ آذار مارس ١٩٤٥ ودخل حيز التنفيذ يوم ١١ مايو من العام نفسه[١].

وقد وافق المجتمعون فى اللجنة التحضيرية على اسم الجامعة بعد تنقيحه من «الجامعة العربية» إلى «جامعة الدول العربية» (طبقاً لمصلحة التمزق ودول الطوائف الهزيلة) ٠

وحول المتغيرات التى أبرزت جامعة الدول العربية إلى حيز الوجود تقول إحدى الدراسات المهمة : «لقد نشأت الجامعة نتيجة تفاعل عقيدة النظام مع البيئة الدولية ومع هياكل النظام العربى ؛ إذ كان التيار القومى متصاعداً ودافعاً نحو قيام وحدة عربية ترضى تطلعات أجيال متعاقبة فى الوطن العربى، بينما كانت القوى الاستعمارية والأوربية تسعى بالاشتراك مع النظم العربية القائمة وقتئذ للتعجيل بإنشاء شكل من أشكال التنظيم الإقليمى يحتوى تطلعات هذا التيار دون أن يحققها، ولذلك برزت الجامعة العربية إلى الوجود تحمل معها تناقضات ثلاثة متغيرات هى: فكر قومى، وتدخل حاد من البيئة الدولية، ومنطق القطرية والسيادة الوطنية!!.

إنها ليست منظمة قومية فوق الدول، لأن ميثاقها أكد السيادة القطرية ولم يأخذ بالأغلبية قاعدة فى التصويت، والجامعة تعتبر أكثر المنظمات الاقليمية تعرضاً لتأثيرات البيئة الدولية وتدخلاتها المستمرة بسبب عقيدة النظام الذى تنتمى إليه٠ فهى ترضخ لمحددات تفرض عليها أن لاتصدر عنها قرارات تتناقض مع عقيدة النظام العـربى ولمحددات تفرضها الدول لكى لاتتمادى الجامعة

---

(١) أحمد فارس عبد المنعم: جامعة الدول العربية ١٩٤٥-١٩٨٥/ ص١٠،٩ نشر مركز دراسات الوحدة العربية ط١ /١٩٨٦.

فى التعبير عن الفكر القومى أو الحد من صلاحيات الأقطار الأعضاء وسيادتها ولتدخلات متواصلة من البيئة الدولية للتأثير على التوازنات والتحالفات العربية .

هذه هى قضية (جامعة الدول العربية!!) .

*   *   *

وفى شرق آسيا وضعت (دولة) سنغافورة ، وأبيد مسلمو الفلبين الذين كانوا ذات يوم أغلبية ، وزرعت جيوش تنصير ضخمة مزودة بالمطارات والموانىء الخاصة ومليارات الدولارات فى أكبر دولة إسلامية وهى أندونيسيا .

وقسمت الهند إلى دولتى الهند وباكستان، ثم قسمت باكستان إلى دولتى باكستان وبنجلاديش ..

ثم كانت حرب إيران والعراق، ثم حرب الخليج بكل ما ظهر من أبعادها وما سيظهر إن عاجلا أو آجلا مما يمثل خطوة من خطوات الأسلوب الدولى الجديد لتطبيق قواعد اللعبة التى تحكم المسألة الشرقية ..أى -بالدرجة الأولى- تحكم حركة المليار مسلم المنقسمين إلى نحو خمسين (دولة) أعضاء فى كل المحافل الدولية!!.

- إنهم بحق كثير ..

- لكنهم غثاء كغثاء السيل!!.

الدولة المجزأة ... ضد الحضارة!!

تتجه الدولة الطبيعية -بطبيعتها- نحو الوحدة، فى المادة والنظم والفكر والشعور، صعوداً إلى وحدة الدولة الحضارية !!.

أما الدولة المزيفة التى صنعها الاستعمار على عينه، فهى تتجه بطبيعة تركيبها المتناقض -نحو التجزئة والتقسيم والصراع على الحدود مع الجيران (!!).. جيران العقيدة والحضارة والمصير المشترك!!.

فما إن تخرج دولة الاستقلال المزيف من مشكلة حدودية، حتى تجد نفسها فى مواجهة مشكلة بئر مشترك، أوصراع على منطقة خصبة، أومنطقة مشتركة غير قابلة للتقسيم!!.

وفى مستوى الفكر واللغة والعقيدة تتجه دولة الاستقلال المزيف إلى التقسيم والتجزئة، حيث وضع الاستعمار فى تركيبها نفوراً من عقيدة الوحدة والتوحيد الإسلامية، وبالتالى - فحتى لورفعت شعار الإسلام فى دستورها - كدين رمزى للدولة -فإنها - عملياً - تتجه إلى تنازلات بين الحين والحين لعقائد الأقليات الأخرى، لأنها تخجل، أو تعجز، عن التمسك العملى والحقيقى بعقيدة التوحيد وحضارة الوحدة الانسانية.

وكثيراً ما تجد الدولة المزيفة نفسها مضطرة لإخضاع عقيدة الإسلام الجامعة، للعقائد والنظريات التمزيقية الفاسدة المضادة التى تطرح نفسها بتأثير ضغوط سياسية أواقتصادية، أوخضوعاً لقوة طارئة أصبحت تتمتع بها الأقلية غير الإسلامية بمؤازرة قوى أجنبية!!.

وهكذا فهى تتأرجح مائلة من سقوط إلى سقوط، ومن تنازل إلى تنازل، لأنها تفتقد عناصر التماسك والإدارة والفاعلية والاستجابة الحضارية الملائمة للتحديات!!.

بل كثيراً ما يقع - وقد وقع فعلا - أن أصبحت هذه الدولة التى صنعها الاستعمار على عينه، تحت مسمى استقلالى لادعائم حقيقية

له - أنكى ما تكون على المخلصين المنتمين، وأعدى ما تكون لثوابت الأمة، وأقرب ما تكون للمنسلخين عن حضارة الأمة ٠٠ إنها تعدهم وتمنيهم وتمكنهم وتمنحهم المواقع والجوائز والصفحات فى أقوى الجرائد والمجلات!!.

- فهل يمكن أن يكون هذا مقبولا فى لغة المنطق والعقل والمصلحة على الأقل؟.

كيف يمكن لهؤلاء المنطقيين والعقلاء والباحثين عن مصلحة الوطن فى الحاضر والمستقبل أن يؤمنوا بجدوى هذه الدولة، وأن يتكيفوا معها ٠٠٠ ؟!!

فى عصر تتجه فيه الحضارة المعاصرة إلى التكتلات الكبرى، والقوى السياسية والاقتصادية والثقافية المتحدة والقادرة على مواجهة القوى الأخرى - هاهى (دولة التجزئة) حسب تعبيرالباحث (منير شفيق) - تتجه إلى الالتحام بعوامل التفتت وعناصر الانسلاخ، ثم تقاوم بضراوة ووحشية عوامل التوحد وعناصر الانتماء والانبعاث!!.

- ومن أعجب العجب أن ترفض هذه الدولة الصناعية كل عوامل التوحد والتقدم، مادامت هذه العوامل ذات صلة بثوابت الأمة، التى عمق الاستعمار فى وعيها أن ترفضها بكل حدة وقوة، وأن تثير حول أصحابها الشبهات والشكوك، وأن تتعامل معهم بأساليب خارجة عن نطاق الإنسانية، وأن ترفض معهم أية صورة من صور الحوار والتفاعل!!.

لقد أدرك الاستعمار - من خلال لجانه وندواته ومراكزه الاستراتيجية - أن الإسلام هو **(منهج التوحد)** لهذه الأمة ٠٠ هكذا كان فى الماضى، وهكذا أثبت عندما التفت الأمة المسلمة حول رايته فى بعض مواقعها فى الحاضر ٠٠٠

ومن هنا وضع الاستعمار مخططاته على أساس فكرة محورية ثابتة هى القضاء على ارتباط المسلمين بهذا المنهج.

ودفع المسلمين من خلال مؤسسات ثابتة قادرة، إلى التخلى عن هذا المنهج، بل ومقاومته بضراوة، حتى تستمر حلقات التجزئة فى التتابع !! وحتى تتشرذم الأمة الإسلامية ويصعب توحدها . . . !!

وتكاد مؤسسات الدول الإسلامية التى ظهرت بعد الاستقلال تجتمع حول هذا القاسم المشترك -**إلامن عصم ربك**-، ومن هنا فإنها بواسطة الإعلام والتربية، وأجهزة الأمن، تحرص على محاربة الإسلام وإبعاده عن العقول والنفوس والإرادة، ونفيه عن الثقافة والحضارة والمؤسسات على أسس غربية بحيث تصبح مدارس الفكر والفلسفة الغربية الأوربية هى النماذج . وهى الدليل لفكر الأمة أوعلى الأقل بالنسبة إلى فكر قادتها وأهل الرأى فيها، وبحيث تحل قيم الحضارة الأوربية الغربية مكان القيم الحضارية الإسلامية؛ فتتغير الأخلاق والعادات وتتغير أساليب الحياة حتى فى المأكل والملبس والمسكن والتربية على أساس الأخلاق والعادات والأنماط الحياتية الغربية.[١]

إن هذه الحبات المنفرطة عن عقد الخلافة الإسلامية والمسماة بالدول المستقلة، والتى يزيد عددها فى المحيط الإسلامى عن أربعين (حبة - دولة) لم تترك أكثرها حلماً من أحلام الاستعمار التى عجز عن تحقيقها خلال عقود احتلاله المباشر -إلا قامت بتحقيقه؛ فقد ألغت المناهج الإسلامية من التعليم، وهمشت المادة الإسلامية تحت تبريرات مختلفة، وعمدت إلى الانتقاص من قدر العلماء والمثقفين المسلمين، وأجهزت ببعضهم على بعض، وتهكمت على ثقافتهم وأشكالهم، وشوهت التاريخ الإسلامى بإبراز العناصر السلبية فيه، وكان ديدنهم- كمايقول- (منير شفيق)- طمس سيرة الخليفة

---

(١) منير شفيق: الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر: صـ٦٥ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ. دار طه للنشر. لندن.

العادل، وإبراز السلطان الجائر، وإخفاء صورة القائد المجاهد، وإظهار صورة الماجن السفاح، وقد أبعدوا عن الأعين صورة المرأة المسلمة المجاهدة ليضخموا صورة الجوارى والقيان أو المرأة الخاملة، كما عمدوا إلى تصفية الهوية الإسلامية الأساسية للأمة من خلال العودة بالشعوب الإسلامية إلى مراحل ما قبل الإسلام.. فرعونية، فينيقية، كنعانية، آشورية، بابلية ... وبهذا تصبح الأمة كتلا بلا هوية، ويصبح لكل قطر هوية مزيفة لا تنفعه إلا وهو سائر على طريق التجزئة والتراجع والعقم والعجز [1] !!.

إنها لاتنفر من منهج الإسلام لأن الاستعمار وضع فيها هذه البذرة الخبيثة فقط، ولكن لأن هذا المنهج الإسلامى هو -وحده- منهج التآلف والتضامن والتوحد... منهج المؤاخاة والحب والأمة الواحدة (!!)، بينما يقوم (جوهر) كيان الدولة المزيفة على التجزؤ والتشرذم والاتجاه إلى مزيد من التفتت، بضغط أقليات دينية أو عرقية يساوم عليها الاستعمار دولة التشرذم الآيلة للسقوط!!.

وهكذا قامت دولة المجتمع المحدث على التجزئة وتمازجتا، فأصبحت بينهما وحدة عضوية. ثم أصبحتا البناء التحتى الذى تستند إليه عقلية التفرنج وفكرية التغريب ونهجية الحياة الغربية. وقد وقف كل هذا فى وجه الإسلام والمجتمع الأصلى الذى بقى من حيث تكوينه الأساسى نقيضاً لدولة التجزئة وللمجتمع المحدث ولعقلية التفرنج وفكرية التغريب. وبهذا أصبحت الحرب العقيدية- الفكرية- الحضارية مزدوجة بعد أن قام المجتمع المحدث من حول دولة التجزئة . فأصبح المجتمع الأصلى يخوض حربه الشاملة ضد القوى الاستعمارية الخارجية، كما يخوض الصراع الحاد ضد الفئات المحلية التى أخذت بالحداثة الغربية... أى المجتمع المحدث ودولة التجزئة (٢)!!.

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٦٦، ٦٧

(٢) منير شفيق: قضايا التنمية والاستقلال فى الصراع الحضارى ص ٤٨. نشر دار البراق. تونس. ط٢ / ١٩٨٩.

- فاستبعاد الإسلام، وهو الأصل الذى التقت عليه الدولة المزيفة مع الاستعمار الحديث، يحقق - للاستعمار ولعملائه - هدفه الأساسى، وهو أن يضمن الانحدار الحضارى المستمر للدول المجزأة التى صنعها بطريقة - أو أخرى، وبالتالى تتجه هذه البلاد - فى المردود النهائى - إلى الطريق المضاد للحضارة !!.

- إن إنسانها يبقى أرخص إنسان فى العالم ٠٠٠

- وإن وقتها وترابها وإمكاناتها تهدر فى صور من الترف والاستهلاك الوقتى والشيئى الاستنزافى ٠٠٠

ولا يسمح لها بإنتاج سيارة أو طائرة أو قنبلة ذرية أو الاكتفاء -عن طريق الإنتاج- زراعياً وصناعياً ٠٠!!.

- وإنما **يسمح لها** بالتلفيق بأشياء من هنا وهناك لتحسين صورتها أمام شعبها المقهور!!.

- ولأنها لا تريد من إنسانها (**واجبات**) إلا الطاعة السياسية والقناعة الاقتصادية، فإنها تلعب (**بحقوق إنسانها**) كما تشاء، وتتعامل معه حسب كرمها ومزاجها الظرفى!!.

* * *

يجب أن لا نتخيل إطلاقا أن هذه الدول المجزأة شرائح يمكن أن تلتقى على طريق وحدة عربية أو وحدة إسلامية، أو حتى على أى شكل ذى فعالية حضارية متحدة فى ظل تركيبها هذا ٠٠٠ إنها لم تصمم تصميماً يسمح بالسير فى هذا الطريق ٠٠، ولنقارن مقارنة وقائعية محايدة بين الإنجازات الحضارية لهذه الدول، فكريا واقتصاديا وسياسيا، قبل الاستقلال المزيف وبعده ٠٠٠ لاأقول نقارن بين تركيا، بعد مصطفى كمال، وبين تركيا الخلافة العثمانية، فهذه قضية أخرى، بل يكفينا أن نقارن بين الأوضاع الفكرية الإبداعية والاقتصادية والسياسية فى بعض البلاد العربية قبل استقلالها وبعده ٠٠ ولنركز على مصر وسوريا وفلسطين والأردن، على أساس

أنها المجموعة العربية التى تواجه مباشرة التحدى الصهيونى الحضارى ...

ولنقم بحصر كامل لعدد المبدعين فى هذه البلاد قبل الاستقلال وبعده.[1]

إن النتيجة معروفة، وحسبنا أن نتذكر أسماء المبدعين المصريين فى الفكر والثقافة والأدب والذرة والصحافة قبل ثورة يوليو، ثم بعد التأميم الثورى للانسان المصرى المسكين!!.

وحسبنا أن نتذكر قيمة الجنيه المصرى بالنسبة للجنيه الاسترلينى أو الدولار الأمريكى أو الريال السعودى قبل الاستقلال الثورى وبعده!!.

ومعروف أن مصر خرجت من الحرب الثانية وهى دائنة لبريطانيا بعدد من مئات الملايين من الجنيه الاسترلينى ..

لكنها خرجت من عبد الناصر والسادات مدينة بعدد كبير من المليارات للشرق الشيوعى أولا، وللغرب الأمريكى ثانيا ...!! وقد وقعت أخيراً فى قبضة صندوق النقد الأمريكى الدولى .. وما عرفنا أن أحداً دخل هذا الصندوق ثم خرج منه بجلده وشرفه ووطنه وحضارته!!.

وما يقال فى مصر يجب أن يقال فى سوريا وفلسطين والأردن وفى أكثر البلاد العربية شريطة أن نضع فى اعتبارنا حقيقة الارتباط الكامل بين التربية والتعليم والإنتاج الاقتصادى والاجتماعى!!.

---

(١) لنترك جانبا قضية التعليم الموجه والحصول على شهادات للوظائف الحكومية يتباهى بكثرتها أبطال الاستقلال مع أنها لا تعنى إلا الضياع فى حلقات التوظيف من أجل الحاجات اليومية والآمال المحدودة، فضلا عن خضوع التعليم للهيمنة التغريبية ذات المردود الاستعمارى ... لنترك هذه القضية، فهى مأساة مستقلة تحتاج الى دراسات مستقلة تتصل بدور التربية العلمانية والتعليم التغريبى فى تمزيق الأمة وتعميق انهيارها وتبعيتها!!.

إنه ذلك الارتباط الذى من شأنه أن يؤدى -عندما تتوافر شروط النهضة وتتحقق الفعالية الحضارية للتربية والتعليم -إلى تحقيق معدلات عالية من النجاح الاقتصادى زراعيا وصناعيا وتجاريا ، وإلى تحقيق التنمية الشاملة الموازية للمستوى العالمى أو المتفوقة عليه ، بحيث يصبح طبيعيا تأمين الحاجات الأساسية والكمالية والاستغناء عن الاستيراد وحماية المجتمع من التهلكة الاستهلاكية .

إن العلاقة بين التعليم والتربية والإنتاج علاقة متكاملة ، وهذه حقيقة لابد من التأكيد عليها ... وعن طريق الوعى الكامل بهذه الحقيقة والانطلاق من التربية والتعليم المتضمنين القدر المطلوب من الفعالية الحضارية -نجحت اليابان فى تجاوز هزيمتها المروعة فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥م.

وكان التعليم الابتدائى -قبل الثانوى والجامعى- هو عمود هذا التعليم وهذه التربية .

ولم تكن الشهادات ولا الإحصائيات الطنانة عن أعداد المتخرجين من التعليم المجانى (!!) -المستغرب- هو الشعار الذى ضحكت به اليابان (الصادقة مع نفسها) على شعبها!! .

بل كان الطريق الذى اتجهت إليه اليابان المحتلة من أمريكا يقتضى الولاء لليابان عقيدة وحضارة ، والشعور بأهمية السباق الحضارى ، وبدرس الحرب الثانية ، والانتماء للعلم والعمل ، والتضحية ، والإنتاج والتدريب المهنى والتطبيقي .. والفعالية الإبداعية .. والمبادرات الفردية والجماعية!! .

وذلك كله بعيداً عن التركيز المغرض على الفلسفات التغريبية والعلمانية والألسنية والتضليل الإعلامى والتربوى .

وكان طبيعيا أن تفوز اليابان (المحتلة) فى السباق ، بينما سقطت دول (الاستقلال) التى ناضلت وكانت مستعدة للتفريط فى كل شئ ما دام (أبطالها) سيحكمونها تحت راية الاستقلال العظيم!! .

. . . **نعم:** الاستقلال الذى أدى -فى المستوى التعليمي والاقتصادي الذي نحن بصدد الحديث عنه- إلى نتائج مروعة تحتاج إلى لجان منصفة، لجان غير سياسية ولا إعلامية!! لجان تتقى الله فى أوطاننا المنحدرة إلى القيعان، بينما نحن نلهو ونصفق ونضحك. . . لجان تقول الحق وحده وتضعه بين أيدى المسئولين عن هذه البلاد!!.

ولهذه اللجان المرتقبة نقدم هذه النتائج المروعة من خلال التقرير الذى قدمه المسئول الأول عن الهيئة المسماة بجامعة الدول العربية. . . وذلك خلال فعاليات المجلس الاقتصادى والاجتماعى العربى المنعقد فى تونس بتاريخ ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٨٣م .

- يقول أمين عام الجامعة العربية:

"إن ٧٠ ٪ من المواطنين العرب لايزالون يعانون من الأمية، ومازال أكثر من نصف المجتمع العربي، يشكو من نقص العناية الصحية. ومازال الوطن العربى يعتمد على الخارج للحصول على أكثر من نصف حاجته من الغذاء، ولا يستخدم إلا عشر قواه البشرية، في وقت يتزايد فيه اعتماده على اليد العاملة الأجنبية. وفي الوقت ذاته يشكو من نزيف حاد في طاقاته العلمية والتقنية"[1] .. "وبالرغم من الجهود المبذولة فقد كان أداء القطاع الزراعى خلال السبعينات يدعو إلى كثير من القلق حيث بقيت الانتاجية الزراعية في مستواها على أحسن تقدير، وانخفضت مستويات الاكتفاء الذاتي خلال هذه الفترة بالنسبة إلى سائر المحاصيل الزراعية، وانحط انتاج الحبوب عموما من (٨٤ ٪) إلى (٦٠ ٪) وخاصة القمح من (٦٦ ٪) إلى (٤٢ ٪)..[2]

(١) تراجع الجرائد التونسية فى ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٨٣م. ويراجع منير شفيق: الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر صـ١٢ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق، المكان السابق.

- فهل هذه الثمار المرة، أو النتائج المروعة هي حصيلة هذه العقود من الاستقلال؟.

- وما معنى الاستقلال إذن وما جدواه؟ وماذا كان بإمكان الاستعمار المباشر أن يفعل بنا في القرن العشرين .. قرن أمريكا وأوربا الموحدة، واليابان - أكثر من هذا؟.

- ويقول التقرير أيضاً:

« لقد شهد العقد السابق ارتفاع القيمة النقدية للبون الغذائي عندنا من حوالي ملياري دولار في بداية السبعينات إلى حوالى عشرين مليار دولار فى الثمانينات وتضاعفت جميع وارداتنا الزراعية عشر مرات، في حين لم يتضاعف مجموع صادراتنا إلا مرة واحدة. وبينما كان مجموع الصادرات الزراعية يمثل حوالي (٩٠ ٪) من كلفة الاستيرادات الزراعية في مطلع السبعينات، فقد انخفضت هذه النسبة إلى (١٨ ٪) في بداية الثمانينات، وكان متوسط الزيادة السنوية في كلفة الواردات خلال السبعينات (٢٦ ٪) سنوياً، بينما لم تزد نسبة نمو الصادرات إلا بمقدار (٥ ٪) ومما يؤكد أهمية هذه المشكلة أننا حتى لو استطعنا خفض نمو استيراداتنا إلى (١٥ ٪) سنويا فإننا سنشهد كلفة استيراداتنا الغذائية ترتفع، أواخر هذا القرن إلى ٣٠٠ مليار دولار..

ففي الوطن العربي مجموعة من البلدان تمتلك ثمانين في المائة من الموارد الطبيعية، ولكنها لاتملك الموارد المالية، ولكنها فاقدة للأراضي الصالحة أو للموارد المائية أو للطاقات البشرية..».

ويعلق على هذه الإحصاءات المفكر الإسلامى (منير شفيق) بمرارة قائلا:

« هذه شهادة لاتترك لدول التجزئة مجالا لدفاع، ولا حقاً برفع رؤوسها، ولاتترك مجالا لفكر التغريب وبرامجه ومناهجه ونظرياته وأيديولوجياته وادعاءاته بالعلمية والموضوعية أن يرفع عينيه وينظر إلى عيون الأمة. إنها شهادة تجعل المسئولين عن هذا التردى

للأوضاع الزراعية- الغذائية.. ومثلها التكنولوجية والتجارية والصناعية والثقافية.. أن يطلبوا أن تشق الأرض لتبتلعهم علهم يكفرون عما فعلوه بالأمة. إنها شهادة لاتترك مجالا للشك فى أن الأوضاع استمرت بالتدهور وازدادت فى سيرها القهقرى فى ظل الجيل الثانى والثالث بعد مرحلة الاستقلال والاستعمار المباشر [1] !!.

* * *

وليت الأمر وقف عند هذا السقوط الاقتصادى والعلمى والفكرى والثقافى، بل زاد من شناعة هذا السقوط أنه حتى على هذا المستوى السياسى... مستوى الاستقلال المزيف الذى تتباهى به هذه النظم أو هذه الدول.. حتى على مستوى (الاستقلال) بدأ هذا الاستقلال يفقد معناه سياسياً.. بعد أن فقد معناه حضارياً..

- وبالإضافة إلى وضع بعض الدول العربية - ولاسيما الخليجية - بعد غزو العراق للكويت والتدخل الأمريكى الدولى المباشر، وفرض الحماية الأمريكية عسكرياً، وزيارة السفير الأمريكى للناس فى (ديوانياتهم) وكأنه مندوب سام!!.

- بالإضافة إلى هذا هناك التفتيش الدولى الدقيق لكل الوزارات فى العراق وليبيا..

- وأما لبنان، فهى أصلا، مكان مدول لنزاعات مختلفة واختراقات دائمة، وأما قضية فلسطين فقد انحدرت فى عهد الاستقلال أضعاف ما فقدته أيام الاستعمار، فإن الاستعمار الإنجليزى المباشر لم يستطع خلال ثلاثين سنة (١٩١٨ - ١٩٤٨ م) أن يهجر إلى فلسطين أكثر من عدة مئات من الألوف من اليهود، ولكن فى عهود الاستقلال العربى وجامعة الدول العربية احتلت "دولة إسرائيل" فى أقل من عشرين عاماً فلسطين كلها ومناطق أكبر من فلسطين مرات، حين نتذكر احتلالها للجولان وسيناء والضفة الغربية وقطاع غزة.. وغيرها...!!.

* * *

(١) منير شفيق: الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر. ص ١١٤.

- هل صحيح هذا ؟

- هل هذه (الدول) المستقلة مجموعة من (السجون) ؟ .

- ألا يحمل هذا الأسلوب مبالغة وتشاؤماً وظلماً - على الأقل - بدرجة ما ؟ .

- لنقرأ هذه الفقرة[1] للدكتور - كليم صديقى - قبل أن نستمر فى توجيه أسئلتنا الحائرة :

« **يجب على علماء السياسة المسلمين أن يتحدثوا كمجموعة أسرى. فعليهم أن يحددوا نموذج السجن ومداه، ذلك السجن الذى ارتضوا أن يعيشوا فيه، وعليهم أن يضعوا خريطة واضحة للسجن.** إن لهذا السجن أبعاداً ثلاثة : اجتماع واقتصاد وسياسة. وهذه الأبعاد الثلاثة مرتبطة بالأروقة الفكرية التى يعتبر هؤلاء المفكرون السياسيون من أكبر مناصريها، وضحاياها، فى آن واحد. ولأجل وضع خطة للهروب من هذا السجن «المفتوح» ولتنفيذ تلك الخطة فى نهاية الأمر. علينا أن نتصرف، لبعض الوقت، كأسرى نموذجيين، ونختلط بمعذبينا بطريقة لاتثير الشكوك. ويمكن، إلى حد ما، أن نكسب ثقة حراس السجن، فهم قد يتعاونون معنا مادمنا لانشكل خطراً على مراكزهم وقيادتهم على المدى القصير! »

- **ولنعد - الآن - إلى أسئلتنا الحائرة :**

- كيف خرجنا من مرحلة (احتلال) إلى مرحلة أضيق وأنكد (السجن) ؟

- ولماذا دفعنا من دماء أبنائنا ثمناً لهذه الصفقة الخاسرة ؟

- هل وقعنا فى (ملعوب)[2] كبير جداً ومؤامرة عميقة ونحن لا ندرى ؟

---

(١) الحركة الإسلامية: قضايا وأهداف - ترجمة "ظفر الإسلام خان" ص٤٩، ٥٠- نشر المعهد الإسلامى بلندن١٩٨١.

(٢) الملعوب: مصطلح محلى مصرى جعل عنوان لأحد كتب قتيل العلمانية فرج فوده، وهو بمعنى المؤامرة.

- وحقيقة: هل خرجنا من الأسر السياسى إلى الأسر الحضارى الشامل؟

- وهل نحن بعد هذه العقود من الاستقلال يجب علينا أن نتصرف كأسرى، وأن نجاهد فى سبيل أن نكسب ثقة حراس السجن؟

- وهؤلاء الحراس من هم؟ هل هم الحراس فى الداخل أو فى الخارج؟

- وأخيراً: فهل يمكن أن يكون السجن وطناً لإبداع حضارة وصناعة مستقبل؟!.

- وهل يصنع الأسرى تقدماً وحياة وحرية وكرامة ؟!

- هل بمقدور البشر أن يخرجوا الحياة من الموت؟!! - أو الحرية والكرامة من الذل والتعذيب والفقر والملاحقة ؟!!

لتكن فى كلمات «كليم صديقى» بعض المبالغة أو المرارة، مع أن الرجل درس فى بريطانيا، وحصل على ليسانس الاقتصاد ودكتوراه فى العلاقات الدولية من جامعة لندن، وينتمى إلى واحدة من أفضل البلاد الإسلامية - نسبياً - فى مساحة الشورى أو الديمقراطية وهى باكستان...

- لتكن ثمة مرارة أو مبالغة.. ولتكن أوطاننا المستقلة أفضل من السجون!! ولنكن نحن أكثر حرية وكرامة وحياة من الأسرى!!.

- لكن: ما الفرق إذن بين دولة الاستقلال ودولة الحماية أو الوصاية!!.

- والأهم من ذلك: هل يصلح هذا الوضع الذى تفرضه على مواطنيها دولة الاستقلال المتشرذمة فى عصر التكتلات الكبرى.. هل يصلح للإقلاع فى طريق الحضارة؟.

- إن تجربة العقود الماضية، وتجربة التاريخ، وطبيعة العصر، وشروط النهضة، وسنن الله، وأحكام الشريعة.. كل هذه تؤكد أن الإجابة هى النفى.. وتؤكد أن (الدولة) التى انبثقت بعد مرحلة الاستعمار الحديث تمثل عقبة فى طريق الحضارة، وعلى الجميع - حكاماً ومحكومين - بأساليب حضارية وإنسانية - أن يعيدوا تركيبها من جديد، وإيقافها فوق قضبان التاريخ!!.

الثورة ليست طريق إصلاح الدولة ولا إنهاض الأمة

هل يستطيع أحد أن يستغنى عن الدولة ؟

وهل يمكن أن تقوم (قرية) دون (عمدة)، أو (قبيلة) دون (شيخ) أو (إمارة) دون (أمير) فضلا عن أن تقوم دولة دون رئيس أو حاكم أو ملك ينظم شئونها ويخضع رعيتها بوسائل ومؤسسات وأفراد يعاونونه ؟!!

إن (الدولة) المستقلة التى تملك قرارها والتى تستطيع أن تحقق لشعبها (الطعام) و(الأمن)، وتوفر لهم مطالب الحياة المعيشية والسبل الكفيلة بتقدمهم ومواكبتهم للمراحل الحضارية المختلفة، وتوازن لهم بين (الواجبات) المفروضة عليهم و(الحقوق) المفروضة لهم..

هذه الدولة ليست حلماً ولا فكرة ولا مجرد عقد اجتماعى بين حاكم ومؤسساته، ومحكومين ومؤسساتهم، بل هى ضرورة من ضرورات الاجتماع الإنسانى والحضارة البشرية!!.

فى الحظائر وفى المراعى والغابات التى تعج بآلاف الحيوانات لم يشعر - ولن يشعر - الأعضاء المقيمون فى الحظائر والمراعى والغابات بأنهم فى حاجة إلى (دولة) أو (رئيس) أو (مجلس شورى) أو (مجلس شعب) بالمعنى الإنسانى الشائع بين الأمم المختلفة..

ونحن لم نفهم أن هذه النظم الإنسانية يمكن أن تكون موجودة فى عالم الحيوانات عندما نقرأ قوله تعالى: «« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون »»[1] وإنما فهمنا أن للحيوانات نظماً تنسجم مع طبيعة (الاجتماع الحيوانى) وتناسب تحدياته وطاقاته، وهى - فى مستواها العقلى والإبداعى-مختلفة كل الاختلاف عن مقتضيات (الاجتماع الإنسانى)!!.

(١) الأنعـــــام - ٣٨

فالدولة بمؤسساتها إذن لازمة من لوازم الاجتماع الإنسانى وكل من يسعى إلى هدم (الدولة) أو تبديد طاقاتها أو توجيهها إلى قضايا بعيدة عن التحديات الحقيقية والمهام الأساسية يرتكب خطأ كبيراً فى حق نفسه وذويه ووطنه ودينه!!.

وتقديراً من الإسلام لأهمية الدولة ولأثرها كان أول عمل قام به الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما هاجر إلى المدينة هو إضفاء صفة الدولة على المدينة المنورة، وقد سعى لاستكمال المقومات التى تصبح بها (دولة المدينة) دولة حقيقية ذات أعمدة داخلية وذات علاقات خارجية، ومن هنا كان بناء المسجد داراً للحكم والعبادة وفق المفهوم الإسلامى الذى يضع المعاملات فى قالب العبادات ويمزج بين قضايا الدنيا والأهداف الأخروية السامية.

وفى السياق نفسه أقام الرسول - عليه الصلاة والسلام - (المؤاخاة) حتى يحكم نسيج شبكة العلاقات الاجتماعية بين العناصر الأصيلة والطارئة المكونة للمجتمع، كما وضع الدستور المدنى لإحكام العلاقات بين العناصر المسلمة والعناصر اليهودية والوثنية فى إطار الوطن الواحد والدولة الواحدة.

وبنص الدستور المدنى كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - الرئيس الأعلى للدولة والقائد العام للحرب والإمام فى الصلاة!!.

كما أرسل الرسول - عليه السلام - الرسل إلى ملوك العالم يدعوهم للإسلام وتبادل العلاقات.

وفى إطار هذا التقدير لمكانة (الدولة) والتأكيد على أهمية وظيفتها - أيضاً - جاءت الأحاديث النبوية الكريمة تقف ضد الخروج على الطاعة، وتدين الشذوذ الفردى أو المزاجى أو الجماعى على الحاكم دون أن تكون هناك الموجبات الكافية لهذا الخروج، ودون أن يكون هناك تقدير موضوعى للأخطار الكبرى التى تحيط بمؤسسات الدولة وبمجموع الأمة من جراء هذا الخروج، بل من جراء ترك الأمور وفق الاجتهادات الفردية للخروج عن الدولة بمجرد دوافع فكرية أو بواعث مزاجية!!.

إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقف ضد هذا المنهج، ويحرس هيبة الدولة، إنه يقول فى حديثه الشريف: « من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصا الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى، وإنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به»[1] ويقول أيضاً: «« ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته »» [2] ويقول: « من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» [3].

وعندما قال الصحابة للرسول - صلى الله عليه وسلم - فى الأئمة المخطئين « يا رسول الله ألا ننابذهم؟ قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة»[4].

وفى حديث بيعة العقبة الكبرى ذكر عبادة بن الصامت أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - دعانا فبايعناه على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان »[5] .

ويرى الأستاذ محمد أسد - رحمه الله - أن هذه الأحاديث تفيدنا أربعة مبادىء وهى:

أولا: أن للأمير الذى يمثل الحكومة الشرعية فى الدولة حق الطاعة من المواطنين جميعاً.

ثانياً: إذا ما أقدمت الحكومة على إصدار قوانين أو أوامر تتضمن معصية صريحة بالمعنى الشرعى، فإنه لاسمع ولاطاعة على المواطنين تجاهها.

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر وأبى هريرة.

(٥) رواه البخارى.

ثالثاً : إذا ما وقفت الحكومة موقفاً تتحدى به تحدياً صريحاً متعمداً النصوص القرآنية فإنه يجب أن تنزع السلطة من يدها .
رابعاً : يجب أن تنزع السلطة من الحكومة دون إقامة أية ثورة لأن رسول الله قال فى ذلك محذراً : (من حمل علينا السلاح فليس منا) ، وقال : (من سل علينا السيف فليس منا) .

يتضح من ذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أمر المسلمين أن يرفضوا تنفيذ أوامر الحكومة التى تتعارض مع نصوص الشريعة ، وأن يخلعوا الحكومة إذا بلغ عملها درجة الكفر، ولكن تمشياً مع مبدأ (وحدة الأمة) الذى أكده القرآن والسنة ، وحضاً على ضرورة المحافظة عليه لا يمكن أن يترك لكل فرد من الأفراد تعيين الوضع الذى تصبح فيه طاعة الأمير باطلة المفعول من حيث هى واجب دينى وقومى .

إن مثل هذا الحكم لايمكن أن يصدر إلا عن المجتمع كله أو عن ممثليه الشرعيين.[1] ونحن نؤمن بهذا الاتجاه ، لأننا نؤمن أنه لن تستقيم أمة يرى كل فرد فيها أن من حقه أن يخرج على الدولة شاهراً سيفه أو قاتلا رجلا من رجالاتها (مهما كان ظلمه!) لمجرد الأخذ بالثأر ، أو للتقدير المزاجى الشخصى ، أو لمواجهة العنف بالعنف . . إن هذا المسلك من شأنه خلخلة المجتمع فى أبنيته المختلفة ، فهو إلغاء للقضاء ، وإلغاء للحاكم ومؤسساته المساعدة ، وتحويل الدولة إلى خصم . . . فضلا عن صرف الدولة عن أداء رسالتها التى تتجسد فى توفير الأمن وتحقيق العدل للجميع من رجال الدولة ومن أبناء الشعب على السواء .

ولكيلا تقع هذه الفوضى وتتفكك الدولة ، ويعم الصراع الدموى جاءت الأحاديث النبوية الشريفة التى أوردنا بعضها ، والتى تحفظ للدولة مكانتها ، وتحملها - فى المقابل - مسئوليتها الشاملة نحو أمن الدولة وأمن الشعب معاً!!.

(١) محمد أسد (منهاج الإسلام فى الحكم) ص ١٤٤، ١٤٥، الطبعة الخامسة، دار القلم- بيروت.

لكن السؤال الذى يجب أن نطرحه هنا - لكى تكتمل جوانب الصورة هو :

ما ألدولة ؟ أو بتعبير آخر : ما الدولة التى تستأهل هذا الخضوع من شعبها ؟

«إن لفظة الدولة تثير بادىء ذى بدء فكرة السلطة : السلطة الفعالة والمحمية والمنظمة . إن الدولة هى نوع من التنظيم الاجتماعى الذى يضمن أمنه وأمن رعاياه ضد الأخطار الخارجية أو الداخلية . وهو يتمتع لهذا الغرض بقوة مسلحة وبعدة أجهزة للإكراه والردع ولا توجد دولة بلا درجة عالية من الانسجام الاجتماعى والتنظيم[1] » .
(إن شخصية الدولة ليست سوى رمز يمثل الجهد المبذول لتنظيم مجموعة العلاقات الاجتماعية التى تؤلف المجتمع السياسى ، كيما تحافظ على القيمة الإنسانية للعلاقات التى تزداد تعقيداً وتسلسلا ومركزية . إنها تدل على الرغبة فى جعل هذه المنظمة البيروقراطية بحكم الضرورة شيئاً آخر يختلف عن عملاق متعسف لا وجه له . فإذا كان على الدولة ديون دفعتها ، وإذا بذلت وعوداً نفذتها ، وإذا تسببت بأضرار أصلحتها . إن تصرفاتها لاتدل على ظهور سلطة كيفية فى الحياة الاجتماعية ، فهى خاضعة إلى القواعد الحقوقية كسائر أنواع التكتلات والجمعيات[2]) .

فالدولة - مع كل قوتها - كيان محكوم بالشريعة والأخلاق . . إنه ليس شيئاً فوق الشريعة ولا الأخلاق ، بل هو - حتى ولو كان امبراطورية - محكوم بسنن الله وعون الله ويجب أن يحكمه القانون الذى يحكم شعبه ويعبر عن ذاته وحضارته .

---

(١) جاك دوفابر -الدولة- ترجمة د /سموحي فوق العادة، منشورات عويدات (بيروت) -باريس، ص٦ .
(٢) المرجع السابق، ص١١ .

إننا نتوقع أن يقول بعضهم: إنه ليس من المعقول قانوناً وعقلا أن تستحق كل دولة هذا الخضوع لهيبتها حتى ولو فقدت هذه الدولة (الطاغية المزيفة!!) أبسط مؤهلات الدولة!.

فلنفترض جدلا - كما يفترض هؤلاء - أن الدولة أصبحت محكومة بعصابة نزت عليها من قطاع الطرق والمغامرين، فهى تصادر باسم الدولة أموال المتاجرين بها، وتحول عرق الشعب إلى الخارج لتوضع فى حسابات سرية خاصة بأعضائها.

هذه الدولة - فى ظل هؤلاء النازيين - تتسلط بشرطتها عليهم، وكأن الشرطة جيش احتلال رهيب وليست أجزاء من الشعب، وهى -إلى جانب ذلك- تستورد لأبناء الشعب أبشع وسائل التعذيب، وتهدر آدميتهم لأقل الأخطاء أو لمجرد شبهات لم تثبت، وتجعل من القانون سيفاً رهيباً قوياً حين يكون فى جانب حماية مصالحها، وتجعله لعبة زئبقية مطاطة بطيئة الإيقاع والتأثير حين يكون ضد طغيانها وتسلطها .. أو لمصلحة الشعب!!.

- فى هذه الحالة .. وحين تنقلب الدولة إلى أداة ترويع وتهديد، وتنقطع الخيوط بينها وبين الشعب، حتى ولو سعى العقلاء من الشعب لإقامة حوار معها ..

- فى هذه الحالة .. وحين تعمد الدولة إلى حكم الشعب بغرض الجوع والفقر عليه ليبقى منهوك القوى مبدد الطاقة بعيداً عن الإبداع والفكر الرزين ..

- فى هذه الحالة .. وحين تكون أذن الدولة مرهفة لكل مقولات خارجية يخدع بها الأعداء فى صحفهم، وتكون أذنها صماء عن كل إيقاعات الداخل وصرخاته العاقلة الصادقة المخلصة ..

فكأنها تفترض أن مفكريها لايستأهلون المبالاة والتقدير، بينما تعرب عن كل التقدير لكلمات الأعداء المغرضين.

- فى هذه الحالات .. حين تصبح الدولة هكذا فى واد بعيد،

ويصبح الشعب نفسياً وفكرياً فى واد بعيد آخر نتيجة تراكم هذه الحواجز والتداعيات التى ربما امتدت بتأثير الأخطاء من بعض أجزاء الدولة وأخطاء - أيضاً - من بعض أبناء الشعب . . .

- هنا ، حتى فى هذه الحالات الخطيرة - ومع تقديرنا التام لآثارها السلبية - على مستقبل الأمة - لاننصح باللجوء إلى الثورة ولا إلى الانقلاب، بل نلجأ إلى روح الأحاديث الشريفة ، فننصح الشعب بتطهير نفسه ، ونبذ فكرة القوة والحقد ، والتصالح مع سنن الله الكونية والاجتماعية وأوامر الشريعة .

ونحن موقنون أن الأمور ستتغير فى أجل قريب إلى الأفضل . .

فقد تعود الأجهزة إلى قواعد العدل ، وقد يتحرك لديها الضمير ، وقد تشعر بأنه لاموجب للتمادى فى استعمال الوسائل اللاإنسانية .

وقد ترى - فى النهاية - أن الشعب لم يعد عدواً ، وأن قدراً معقولا من سعة الصدر ، ومن جسور الحرية والحب ، قد تحل الألغاز المعقدة ، وتعيد إلى البناء الاجتماعى الفوقى والتحتى قدراً معقولا من التكيف والانسجام!! .

إننا نؤمن بأن الدولة يجب أن تكون الأسبق فى تقديم النموذج الأخلاقى والإنسانى وفى الالتزام بالقانون . . لكننا - حتى فى هذه الحالات - التى تخطىء فيها الدولة وتقدم النموذج الأسوأ - لانرى أن مقاومة السوء بالسوء والعنف بالعنف هو الحل الصحيح ، لاسيما وللدولة بعض العذر فى خوفها على هيبتها ، كما أن امتلاك الدولة لأجهزة الردع من جيش وشرطة وغيرها يجعل نتائج المقاومة بالعنف وخيمة العاقبة على الجميع ، وعلى الشعب بقدر أكبر!! .

فمن أجل الشعب أولا ، والوطن ثانيا ، والأمة ثالثا ، نرفض مقاومة العنف بالعنف ، ونؤكد أن الوطن والأمة هما اللذان سيدفعان الثمن من رصيدهم المادى والمعنوى فى النهاية ، حين تشتعل صور العنف والحقد بين الدولة والشعب ، وحين يصبح أمن الدولة نقيضا

لأمن الشعب!!.

ولهذا كله جاءت أحاديث (الطاعة) التى أوردنا بعضها سابقا، والتى تقدم - كما هى القاعدة الأصولية - درء المفسدة على جلب المصلحة!!.

* * * *

والأصل فى وظيفة أجهزة الردع والقوة فى الدولة أنها لحماية حقوق الإنسان عامة وحقوق المواطن خاصة، ولهذا كان لابد أن تكون الدولة قوية، فالدولة الضعيفة لاتستطيع حماية نفسها ولاحماية شعبها.. ولهذا يرى (جاك دوفابر) أن الضمانة الأولى للحقوق هى توافر دولة قوية، وبالتالى فقوة أجهزة الدولة من شرطة وعسكريين ورجال نيابة عامة، ضرورى لأمن الشعب، - وليس فقط - لأمن الدولة، فإن الشرطة تحمى - أو يجب أن تحمى - حياة الأفراد وأموالهم، وعلى الدولة أن تمارس سلطة التحكيم الأعلى فى النزاع المستمر بين القوى الاجتماعية جميعا.

وسلطتها فى هذا الشأن لايمكن أن تسمح بأن تعلو عليها أية سلطة أخرى من الناحيتين المادية أو المعنوية، سواء حاولت ذلك المنظمات النقابية، أو الطوائف الدينية، أو التكتلات الحرفية أو السياسية.(١)

- وبالنسبة لنا - كمسلمين - فإن هذه السلطة العليا، والتى تتمتع بها الدولة فى التحكيم، يجب أن تكون مقيدة بتعاليم الإسلام وبالوسائل التى يقرها، وبالحدود التى تحكم العلاقة بين الفئات الاجتماعية وعناصرها المختلفة!!.

---

(١) دوفابر: الدولة: ترجمة / الدكتور سموحى فوق العادة، منشورات عويدات / بيروت / باريس ص٨.

لقد أجمعت الدول الأوربية - بعد صدامها بالكنيسة صداما داميا فى العصور الوسطى - على فصل الدين عن الدولة ، ولم يكن أمام الدول الأوربية والأمريكية طريق إلا هذا الطريق فى ظل الصرامة العنيفة المكبلة للعقل والإبداع التى فرضتها الكنيسة على فهم الكتب المقدسة ، وعلى أية محاولة لنقد هذه الكتب نقدا موضوعيا .

لقد ألغت الكنيسة - أو كادت - سلطان الدولة ، وكان لها جواسيسها وسجونها وأساليب تعذيبها البشعة . . ولم تكن الدولة فى ظل تخلف العصور الوسطى تملك بدائل (قانونية) واضحة لحكم الشعب ، ولهذا طغت الكنيسة ، وعاقبت عددا من الحكام والعلماء ، لأنهم حاولوا الوقوف فى وجه طغيانها ، وفى المقابل ناصرت طغاة وفسقة كثيرين ، لأنهم خضعوا لها وتواطئوا معها ضد الشعب ، وعقدوا معها اتفاقيات باقتسام الثروة والنفوذ!! .

وفى ظل هذه الانفصامية تكونت الدولة الحديثة فى أوربا مقدمة للبشرية نموذج دولة لاتجعل للدين مكانا فى سياستها ولاهمومها ، وهى تفصل فصلا كاملا بين الدولة والكنيسة ، والدين والعلم ، والطقوس العبادية وصياغة الحياة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا .

وكان هذا إفرازا طبيعيا لتاريخ طويل من الصراع مع الكنيسة التى أساءت كثيرا إلى حقيقة الدين ، وبالتالى أساءت إلى العقل الأوربى ودفعته دفعا إلى المادية فى الفكر ، والإباحية والنفعية فى السلوك!! .

فالدولة الأوربية الحديثة - إذن - تعبير صحيح عن تطور تاريخى منحرف . والمقولات التى تحكم هذه الدولة من علمانية ومادية وبرجماتية ولائكية ولا دينية هى مقولات منسجمة مع تاريخها وتركيبها فى ظل القيم الموروثة والعقائد الكنسية التى تهيمن على وجدانها وفكرها .

أما الدولة التى أفرزتها الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى، فهى تعبير عن قيم أخرى وعقائد أخرى وحضارة تمزج - فى الفكر والسلوك - مزجا كاملا بين الوحى والعقل والروح والمادة والعبادات والمعاملات.

- وفى طبيعة هذه الحضارة وفكرها الإسلامى أن الانفصام بين هذه المتكاملات (وليس المتناقضات كما هو الحال فى الحضارة الأوربية) يعنى موت الشطرين معا مثلما تنفصل الروح عن الجسد.

وكان على الدولة - فى المحيط العربى والإسلامى - تلك التى تزعم أنها استقلت وانعتقت من إسار الحضارة الأوربية وعادت إلى ذاتها وجوهرها - أن تترجم فى فكرها ومؤسساتها وتربيتها لأبنائها وإعلامها هذه الطبيعة الحضارية - الإسلامية والعربية - التى تنتمى إليها، لا أن تترجم - بل وتحارب - فى سبيل التعبير عن الحضارة الاستعمارية بكل حروفها الكنسية واللادينية!!.

إن بقاء هذه المؤسسة (**هذه الدولة**) بعد هذا الاستقلال الوهمى - فى خندق الخصم الحضارى مترجمة عن قيمه وعقائده وفلسفته فى الحياة، لايمكن أن يقبله منطق الأمور!!.

فإذا كان ما يسمى (**بالدولة**) فى العالم الإسلامى يحقق الأهداف الاستعمارية نفسها - بل وبضراوة أحيانا - ويتقدم يوما فيوما لكى يذيب شعبه فى الفلسفة والقيم الأوربية نفسها، فإن هذه المؤسسة - إذن - ليست إلا مؤسسة عاجزة عن التعبير عن حضارة الأمة التى تنتمى إليها، وهى - بهذا الإطار - أقرب إلى التعبير عن الحضارة الاستعمارية المعادية، وعليها - بالتالى - أن تسحق شعبها وأن تدخل فى معركة تدمير كبرى - بالتربية والإعلام والشرطة - لكل فرد ولكل بيت، وتكون - بالتالى - قد قامت بأروع دور يحلم الاستعمار به، وفى المقابل قدمت أكبر نموذج للخيانة العظمى فى التاريخ، إنها خيانة مركبة شائنة... خيانة لله، وللدين، وللنفس، وللحضارة، وللوطن.. وسوف تتوالى على هذا النموذج للدولة

الخائنة لعنات الله والناس إلى يوم القيامة!!.

فضلا عن شيء خطير.. هو أنها لن تنجح في ذلك.. فقد فشلت الشيوعية فى ذلك - أمامنا - فشلا ذريعا، بعد أكثر من نصف قرن من التدمير والسحق للفرد والأسرة والمجتمع.. وقد عاد الناس بعد إلقاء الشيوعية فى "**مزبلة**" التاريخ إلى ولائهم لدينهم ولقومهم ولأوطانهم.. ولم تصلح عملية الانسلاخ الحضارى التى حاولتها الدولة الشيوعية الآن فى موسكو.. لقد عاد المسلم مسلما والأرمنى أرمنيا والآذربيجانى آذربيجانيا والروسى روسيا.. وعادت الصرب - بكل أحقاد الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش - تسحق المسلمين أطفالا ونساء وشيوخا فى البوسنة والهرسك... بعد نصف قرن من سيطرة الدولة الشيوعية فى يوغوسلافيا ومحاولتها بكل الوسائل اللاإنسانية سحق الهوية الإسلامية!!.

فمع الخيانة العظمى التى ستقع فيها الدولة للدين والوطن، ومع الركوع الذليل للفلسفة الاستعمارية وتحقيق أكبر آمال الاستعماريين محسوبة على الوطن والدين.. مع ذلك كله، فإن المصير هو نفسه المصير الذى واجه الشيوعية بعد كل ما بذلته من جهود فى تدمير الأديان والأوطان!!.

- فهل ترضى الدولة الحديثة فى المحيط العربى والإسلامى بهذا الدور الخيانى الكبير ؟!.

- إننا نؤمن بأن كثيرا من المخلصين المنتمين لدولابها - ومركبها - لن يرضوا بهذا الدور إذا أدركوا حقيقته وطبيعته... وإننا لنرجوهم - ونضع أيدينا فى أيديهم - من أجل ألانظل ركابا فى قطار يمضى فى الطريق المعكوس!!.

وما الحل لأزمة الدولة حضاريا ؟

بوضوح شديد وبصراحة لاتنقص الاستعمار - أعلن فلاسفته - بلسان الحال والمقال - أنهم سيحكمون العالم الإسلامى والعربى عن طريق مؤسسة (الدولة) الحديثة التى سيكثرون من نماذجها . . . .

إن الجانب العملى (لسان الحال) واضح جدا ، وهو كاف لإدراك الظاهرة لاسيما والاستعمار يلعب بهذه المؤسسة كما يشاء . . .

فعندما يلزم الأمر يأتى شخص ما يقبل الدور التمثيلى ضد حضارته (فى مظاهرة شعاراتية صاخبة) ليمسك بزمام الدولة .

والاستعمار يعد فى معامله ومختبراته العناصر المؤهلة والمجهزة والمفصولة تماما عن ثوابت الأمة لكى يدفعها إلى قيادة الدولة . . .

وسواء كان ذلك (بانقلاب) عسكرى أو (ثورة) شعاراتية غوغائية فإن النتيجة واحدة والخلاف اللفظى لا معنى له!!

وحتى عندما يركب الشعب المسلم مركب الديمقراطية الذى يتظاهر الاستعمار بأنه يدعو إليه ، فإن الاستعمار يرفض هذا المركب ونتائجه إن أدى إلى الطريق الصحيح لبعث الأمة وإقلاعها الحضارى وتحقيق انتمائها وذاتيتها ، وبالتالى يلجأ - فورا - إلى العناصر التى أعدها فى معامله واحتفظ بها فى عواصمه أو فى العواصم الصديقة أو فى داخل الجيوش (الوطنية) (!!!) - لكى تؤدى المهمة وتجهض محاولة الإقلاع الحضارى! .

ونحن فى غنى عن تقديم نماذج لهذا السلوك الاستعمارى المعروف ، لكن تجارب تركيا والجزائر من أبرز التجارب فى هذا المجال! .

فعندما وصل (الإسلام) - بالديمقراطية - إلى الحكم، دفع الاستعمار بعناصره لإلغاء الديمقراطية والإسلام معا ، وكأنه - فى رأى الاستعمار وأعوانه - أن الديمقراطية مربوطة بصرف الأمة عن ثوابتها وإلا فلا داعى لها، والديكتاتورية أفضل منها عندما تؤدى الديمقراطية للسير على القضبان الصحيحة!!.

وقد يكون الاستعمار منسجما مع مصالحه، فتحقيق المشروع الحضارى الإسلامى سيقتلع هذه المصالح التى تحفظ الشعوب المسلمة فى مرحلة (بروليتاريا) للاستعمار ، وسيقف العالم الإسلامى - بالشورى والاستقلال الحقيقى - مكافئا للاستعمار ، أو على الأقل فى موقع المقاومة للمكانة التى يريد الاستعمار أن يبقيه فيها .

فالوضوح العملى لأهداف الاستعمار من مؤسسة الدولة (لسان الحال) لايحتاج إلى دليل..!!.

أما الوضوح الفكرى (لسان المقال) فلم يبخل به الاستعمار كذلك، بل إننا - تلامذة وأساتذة - كنا نحفظ، ونكرر قاعدته الكبرى لاستعمارنا فى كل يوم، وكأننا نكرر أغنية وطنية!!.

فكلنا متفقون على أن الاستعمار يحكمنا بشعاره القولى والعملى (فرق تسد) وفى كل كتب المطالعة والتاريخ وما يسمى (بالتربية الوطنية) كنا نكرر ونعيد هذه المقولة!!.

والطريف فى الأمر أننا ونحن نكرر هذه المقولة كنا نحاول - عامدين أو جاهلين - تجاهل أن أبرز دلالاتها ليس فيما نروج له من أساليب الوشاية الاستعمارية المباشرة بين الدول الإسلامية ونشر صور التناقض الفكرى بينها مرة بالاشتراكية ومرة بالقومية وثالثة بالوطنية ورابعة بالعلمانية لإبعادها عن الوحدة التى يكفلها الانتماء للحضارة الإسلامية الواحدة عقيدة ومنهج حياة...

وإنما أبرز دلالاتها- بل وأثبتها وأقواها فى الحقيقة - يتمثل فى التقسيم القطرى الذى رعاه الاستعمار - إلى عشرات من الدول

تتكفىء كل دولة منها على نفسها وتتعارف مع جيرانها على (عدم التدخل فى الشئون الداخلية) وعلى الانتساب إلى الهيئات التى تدعم هذا المفهوم التمزيقى مثل المنظمات الدولية ومثل جامعة (الدول) العربية التى تمنع الوحدة حين تحافظ - بإصرار - على كلمة (الدول) فضلا عما ركب فى نظامها الأساسى من عناصر التمزيق والضعف!!.

لقد عمدنا إلى تجاهل إبراز أن هذه الدول - بطبيعتها هذه - هى التطبيق العملى الثابت لشعار (فرق تسد) وأنها ستبقى كذلك ما لم تقم بمقاومة عملية لهذا الشعار الاستعمارى، وذلك بقيام هذه (الدول) نفسها بتحليل عناصرها وتنقية مركباتها، والانتصار على نفسها، والسير فى طريق العمل الحضارى المشترك فى ضوء الثوابت العقدية وأبجديات الحضارة.

ولا حل أمام هذه الدول - عند توافر الرغبة الحقيقية فى إصلاح هيكلها - إلا باستنفار كل طاقات شعبها، وبناء إنسان قوى قادر - كفرد - على تحطيم الأهداف الاستعمارية حين يشكل على أساس أن طريق صناعة الحضارة يقوم على استثمار كامل (للإنسان) و(الوقت) و(الأرض) من خلال مفاعل عقدى حضارى منفتح ذى رسالة إنسانية، وهو بالنسبة للعالم الإسلامى لن يكون سوى (الإسلام).

هذا الإسلام الذى سيصبح وقوده، وفى الوقت نفسه منهجه، وكذلك رسالته الدائمة الثابتة إلى العالم، فهو إذ يدفعه **(للعمل)** الشاق فى السباق الحضارى، ويجعله يعبد الله **(بالعلم)** الدنيوى القادر على مواجهة العلم الدنيوى الذى تسخره الحضارات الأخرى لسحقه وسحق الأطر الحضارية الأخرى فى العالم...

الإسلام إذ يوجهه إلى العمل والعلم يحميه - كذلك - من الذوبان والتآكل الداخلى فى صراعات (فرق تسد).

ويستعلى به إلى توجيه أسمى يشد (الدولة) إلى رسالة أعلى تخرج بها عن الدائرة المغلقة التى وضعها الاستعمار فيها . . . وعندئذ تصبح الدولة جزءا من رسالة إنسانية ومشروع حضارى عالمى .

لقد كانت (الدعوة الإسلامية) التى هى نواة المشروع الحضارى الإسلامى وقطبه المركزى هى الحل الصحيح فى مواجهة أكثر العواصف التى مر بها العالم الإسلامى عبر تاريخه كله .

وقد كانت هى الملاذ له حتى فى حالات الانسحاق العسكرى ، فلقد انهزم المسلمون هزيمة نكراء أمام التتار سنة ٦٥٦ هـ ، لكن الدعوة مالبثت أن انتصرت وأسلم المنتصرون عسكريا ، وجلسوا تلامذة أمام المسلمين الذين انطلق علماؤهم يعلمونهم الكتاب والحكمة ويأمرونهم فيطيعون!! .

إن دخول الدولة كجزء من دعوة عالمية تقف على ثغرة من ثغورها وتجند لها شطرا كبيرا من إمكاناتها ، وتتبادل المواقع - بتخطيط - مع الدول الأخرى فى المحيط الإسلامى ، من شأنه أن يزيل الآثار المدمرة لتعدد الكيانات السياسية فى العالم الإسلامى ، ولسوف يقضى على الخلافات التى تنجم عن (الحدود المشتركة) و (المذاهب الوافدة) و (الأحزاب الفكرية السياسية) التى تقوم فى أراضيها، وتشتت شملها ، وتحدث بينها التناقض والصراع .

وبشىء من التنسيق فى العمل - فكريا وتربويا وإعلاميا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا - سوف تصبح الدول الإسلامية أجزاء لفاعلية واحدة ، وسهاما تختلف مواقع انطلاقها لكنها تصب فى غاية واحدة . . ولسوف تجد القوى الاستعمارية نفسها فى مواقف الدفاع ، بعد أن حولتنا منذ نحو قرن إلى مواقع الدفاع المتدنية ، وأصبحنا لاهم لنا إلا الحديث عن مخططاتها ومؤامراتها وغزوها الفكرى والثقافى ، وكأننا - ببلاهتنا المعهودة ننتظر منها - وهى العدو الحضارى الثابت شئنا أم أبينا شاءت هى أم أبت - أن تتحول إلى حمام وديع ، وأن تكف عن استنزافنا ، وأن تتركنا - حسبة لوجه الله -

كى نقوم وننهض ونحافظ على خيراتنا ونعاملها معاملة ندية، بل ربما أصبحنا - ونحن كما تدرك هى - مؤهلون لذلك - قوة حضارية وفكرية جديدة، وتحولا جديدا فى التاريخ!!.

وبالإضافة إلى هذا الدور الكبير (الدعوة) فان من الجدير بالذكر أن نوضح أن الدعوة التى تعنى جوهر شخصيتنا الحضارية الإسلامية، فضلا عن تبليغ رسالة الإسلام الفكرية وصياغتها للحياة إلى العالم - هى شرط من شروط تحقيق كيان هذه الأمة... فالقول بأن أيا من الوطنية أو القومية تصلح رسالة لنا قول هراء، والقول بأن أمة تستطيع أن تبقى فى التاريخ بلا هوية وعقيدة (أيديولوجية) هراء كذلك، فعنصر الاستجابة للتحدى الذى تطرحه الأيديولوجيات الأخرى يقتضى التسلح بسلاح الدعوة التى تشكل العقيدة والرسالة.

إن تجربة الدولة الإسلامية الأم تبين لنا أن الدعوة كانت صمام الأمان وطريق مقاومة الشتات والاستجابة للتحديات وقطع الطريق على الخصوم وتحويلهم إلى موقف الدفاع... ولهذا تحولت الأمة كلها فى عصر الرسول والراشدين إلى منظومة جهادية فى حالة تأهب دائم من أجل اقتحام العالم.

ولم يكن جند بنى أمية (رضى الله عنهم) غير نخبة شباب المسلمين المتطوعين للجهاد والمرابطة الدائمة.

وبغض النظر عن ماهية السلطة آنذاك، فإن العلماء المسلمين كانوا يرون استمرار الدعوة- عن طريق الجهاد- كفيلا بتصحيح كل شىء، لهذا كان الرباط بسواحل الشام(١) ولهذا كان الانطلاق إلى أقصى الشرق والغرب لنشر الدعوة فى أصقاع الترك والقوط مثلهم

---

(١) نقلا عن رضوان السيد: الأمة والجماعة والسلطة. ص ١٦٣. نشر بيروت. طبعة أولى ١٤٠٤. وانظر تاريخ أبى زرعة الدمشقى (مخطوطة مكتبة الفاتح) ١٦/١ ومابعدها (نقلا عن رضوان السيد)- المرجع السابق.

الأعلى[1] وفى هذه الفترة بالذات انتشر الحديث المشهور الذى يأمر بالصلاة (جماعة) خلف كل أمير، والجهاد (دعـــــوة) مع كل سلطـــــان[2].

وعندما رأى عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١) أن الفتوحات أصبحت معارك (دولة) على حساب (الدعوة) أوقفها، لأن الدعوة هى الهدف، وبدون الدعوة تصبح الحروب وسيلة تدمير لجميع الأطراف!!.

لقد شاع لدى كثير من المؤرخين أن عمر بن العزيز أوقف الجهاد وأمر الجند كله بالقفول بحجة أن الجهاد تحول إلى تجارة، بينما النبى (رحمة مهداة) وأنه بعث (هاديا) لاجابيا. وكان من نتائج ذلك إنقاذ القسطنطينية من السقوط، كما كان من نتائجه توقف تقدم الإسلام فى أواسط آسيا لأكثر من نصف قرن - لكن الجدير بالانتباه أن المتطوعين المسلمين الذين كانوا يرفضون تلقى العطاء (أى غير المرتبطين بالدولة) ظلوا فى مواطن مرابطتهم وإن لم يستطيعوا متابعة الاقتحام - فإذا علمنا - كذلك - أن الجند الإسلامى فى خراسان كان يخوض معركة المطالبة بمساواة المـوالى المجاهدين بالعرب المجاهدين. وإذا علمنا أن الجند الإسلامى أمام أسوار القسطنطينية كـان فـى حالـة ثـورة على الإدارة الأموية لعدم إمداده بالمواد التى تعينه على متابعة الحصار فى الشتاء القاسى، أدركنا أن القضية كانت بالنسبة إلى عمر ليست قضية

---

(١) قارن بكتاب الجهاد لعبد الله بن المبارك (نشر نزيه حماد/ ١٩٧١م) ص٣٦- -٤٢ (نقلا عن رضوان السيد ١٦٣)

(٢) قارن عن الحديث وأحاديث مشابهة: كتاب الجهاد لابن المبارك ص١٣٠. وما بعدها. والمعجم المفهرس ١/ ٣٨٨ نقلا عن رضوان السيد (المرجع السابق).

موازنة بين (رحمة) و(تجارة) بل قضية موازنة بين (دعوة) و(دولة) (١) ، دعوة تعتمد القتال(٢) لتحقيق الأمة فى العالم ، ودولة تريد قطعة محددة من الأرض تستطيع بشرطها وعصبيتها أن تسيطر عليها، ولامانع أن يكون الإسلام هو الفكروية السائدة على هذه القطعة المحددة من الأرض، لكنه الإسلام الذى يمكن ضبطه، والشريعة التى يمكن استيعابها.

لكن الدعاة لم يستسلموا لمفهوم الدولة هذا بل مرة أخرى استخدموا التجربة التاريخية للنبى والراشدين لدعم وجهة نظرهم فى الدعوة، وفى أن الجهاد بأشكاله المختلفة مستمر إلى يوم القيامة(٣) .

وعندما فشل الفقهاء والدعاة وانتصر مفهوم **(حروب الدولة)** بعد عمر بن العزيز (١٠١ - ١٣٢ هـ) كان لابد أن تترنح الدولة الأموية آيلة للسقوط!!.

ومثل ذلك وقع فى الأندلس، فلقد انتصر المنصور بن أبى عامر (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) فى سبع وخمسين غزوة ضد نصارى الشمال الأسبانى، ولم يهزم فى معركة قط، وقد جلب الخير الكثير لشعبه لدرجة أنه سمى (الجلاب)، لكن ما إن مات المنصور حتى ترنحت الأندلس داخلة فى عصر من أسوأ عصور الأندلس، وهو عصر الفتنة (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ) الذى أدى إلى عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ - ٤٧٨ هـ).

وكان السبب الرئيس أن هذه الحروب كانت حروب دولة، ولم تكن معارك اقتضتها مسئولية الدعوة.

---

(١) رضوان السيد: المرجع السابق ١٦٤.
(٢) كوسيلة اضطرارية وهناك وسائل كثيرة أخرى أساسية.
(٣) رضوان السيد: الأمة والجماعة والسلطة: ص١٦٤.

ونحن فى عصر قد تكون الحروب فيه باهظة التكاليف، وقد تعددت فيه أساليب نشر الدعوات، بحيث لم يعد ثمة حاجة ملحة للحروب بالنسبة لنشر الدعوة. فلم يعد هناك حاكم (طاغوت) يستطيع أن يمنع تبليغ كلمة الله، فإن المذياع وشاشة التلفاز لايستأذنان حاكما ولايعرفان السدود والحواجز والحدود الدولية، وكما أن طبيعة العصر أوجبت نوعا من الانفتاح بحيث صح القول الشائع، وهو أن الأرض أصبحت (قرية أليكترونية).. وهناك نحو مائة إذاعة - بلا مبالغة - وعشرات القنوات التلفازية متخصصة - بوضوح - فى نشر النصرانية وتشويه الإسلام.

ولو أننا وجهنا - بإخلاص وصدق - نصف هذا العدد - بلغات مختلفة، لنشرنا الإسلام، وهو دين الفطرة والعقل ولحققنا نتائج ممتازة، هذا بالإضافة إلى الوسائل الإعلامية والتربوية الأخرى التى ليس من همنا أن نحصرها هنا!!.

إن (الدعوة) هى طوق النجاة الوحيد الذى نقدمه لهذه الدول الإسلامية الكثيرة العدد، والتى لا وزن لها فى عالم اليوم.. لا فى النظام الدولى القديم، ولا فى النظام الجديد، إن كان ثمة - حقيقة - هذا الذى يسمى بالنظام الدولى الجديد..

وحتى هذا الشعار المسمى بالنظام الدولى الجديد والذى تلقفه العرب والمسلمون السذج، وكأنهم أمسكوا (بطوق النجاة) - يدل دلالة بالغة على أن العرب فى الحضيض من إعمال العقل، والفقه بسنن الله فى التطور الحضارى، واستيعاب معطيات التاريخ، والوعى بظروف التحولات الحضارية، والأخطر من ذلك الإدراك بحقيقة الصراع الحضارى والهيمنة الغربية والأقرباء والأعداء..!!

فلا أمل لنا فى البقاء إلا بالدعوة الإسلامية.. بفكر يقاوم الفكر الضاغط... بدعوة قد يجد فيها الخصم إذا أحسنا طرحها جسرا يلتقى به معنا، ويجد نفسه مضطرا لتعديل موقفه الأخلاقى

والحضارى منا.. ذلك لأنه هو نفسه فى حاجة ماسة إلى الدعوة.. إنها علاج لكثير من أمراضه المدمرة، وتعديل لصياغته للحياة. لكنه، وهو فى هذا الوضع القوى، وهذا التيه، لايتصور أن أمثالنا من الشراذم المتخلفة المتدثرة بعباءات هشة تسمى (دولا) يعرف هو نفسه حقيقتها أكثر - بالطبع - مما نعرف نحن... لايتصور أن أمثالنا - من المتهالكين المستهلكين - يمكن أن يكون لديهم المنهج الصحيح لعلاج حضارته، ولعلاج الإنسانية جمعاء...

لكن هذه هى الحقيقة التى ستنكشف يوما عندما تصل الأمور إلى الحضيض، وعندما يفلس الجميع، وتسقط فى الحضارة الأوربية عوامل القوة أمام ضغوط عوامل الاستلاب الإنسانى والكونى التى تبدو نذرها قوية لأصحاب القلوب النقية والعقول المتحررة من ضغوط الواقع والمادة.

إن هذه (الدول) الإسلامية والعربية ترتكب جريمة كبرى فى حق نفسها وفى حق الإنسانية كلها عندما تتكفىء على ذاتها هذا الانكفاء الرخيص الذى تعلم هى أن نهايته لن تكون أفضل من نهاية غرناطة.. وهى - كذلك - ترتكب جريمة عظمى عندما تسمح لأعداء الإسلام من أبنائها بقيادة فكرها وتربيتها وإعلامها وثقافتها واقتصادها واجتماعها، وبالتالى يقدمون أسوأ صورة لحضارة الإسلام، ويضللون الإنسانية كلها ويبعدونها عن رؤية الحق والنور وطوق النجاة للبشرية...

- وعلى العكس من ذلك، فإنها ستقدم لنفسها وللعالم كله أعظم خدمة عندما تدير سياستها وفكرها وحركتها فى العالم حول قضية عالمية منسجمة مع تراثها ووعائها الحضارى ورصيدها التاريخى وحقائق العقل والفطرة... إنها تتجاوز - بهذا - السجن المظلم الذى وضعها الاستعمار فيه، وتنطلق عالميا، وتصل إشعاعاتها، وإشعاعات نظائرها إلى العالم، فتخترق وتتفاعل، وتنتقل من مرحلة الانكفاء والدفاع إلى مرحلة الانتشار الحضارى

والرسالة العالمية . . .

وليس ثمة قضية كبرى تحقق كل هذا إلا قضية (**الدعوة**) التى يجب أن تكون (**مركزية**) الدولة المسلمة و (**جوهر**) سياستها وطوق نجاتها .

إنها الطريق الوحيد الذى حدده الله للأمة - أفرادا ومؤسسات ودولا - للنصر والتمكين :

(الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)

صدق الله العظيم

فهرس

رقم الإيداع ٩٦٠٢/١٩٩٣

I . S . B . N : 977 - 255 - 275 - x

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN